أحمد الملك
وردةُ عبّاد الشمس اللامعة
رواية

أحمد الملك

وردةُ عبّاد الشمس اللامعة

رواية

بنوبس للنشر

الطبعة الأولى: 2016

إكتفى بالسلام علينا من على البعد بإشارة من يده دون إهتمام، قبل أن يواصل سحب دخان الشيشة وإغراق المكان حوله في سُحب الدُخان، كان يبدو حين يتبدد الدخان من حوله لحظات الشهيق: مثل ثور يحترق، لحظة وصولنا كان هناك هجوم من المتمردين على أحد أطراف المدينة، لكنه لم يبد اهتماماً كبيراً بعجلة زملائه الضباط، الذين ارتدى بعضهم ملابسه بسرعة وغادر البيت، إستأنف لامبالاته الطبيعية الهادئة، حتى حين ينهار العالم كله من حوله، سيبدو مثل شخص سعيد، لا تقع أية مصيبة كونية ضمن دائرة مسئوليته أو إهتمامه، يستمد سعادته من معين داخلي لا علاقة له بتعقيدات الحياة في العالم خارج حدود جسده.

قال له أحد زملائه الضبّاط: هل ستخرج معنا؟

ردّ بدون اهتمام وهو ينفض الرماد من حبّات الفحم: هل نسيت؟ اليوم يوم عطلتي!!

ضحك زميله وقال: لا توجد عطلات في الحرب، هل نخبر المتمردين بعدم شن الحرب أيام عطلة سعادة العميد؟

قال بدون اهتمام وبصوت إنسان آلي: لا تخبرهم بشيء، اذهب وحاربهم ما دمت لا تستطيع الحصول على عطلة من الموت!

دفن السيد العميد لامبالاته في الدخّان، بدأت العمل فوراً: حاولت أن أرى رد فعله على تعليق زميله، لحسن الحظ انقشعت سحب الدخان من حوله، فرأيت صفحة

وجهه التي تحولت بفعل إدمان اللامبالاة إلى قطعة حجر، تخيلت للحظة أنه لولا صوت قرقرة الشيشة وسُحب حلقات الدخان من حوله، لما شعر الناس بوجوده بينهم.

بدأنا العمل فوراً، طلب منه زميلي سراج سيجارة، نظر بعين فارغة بإتجاه سراج، قبل أن يسحب صندوقا من جيبه ويلقى به في اتجاهنا، لم تبد عليه السعادة لوجودنا، لكن لا مبالاته كانت تطغى على أية شعور بالضيق لوجود غرباء، أخيراً وجدنا أنفسنا وجها لوجه مع الرئيس القادم! مع العميد: حسن عبد الرحمن النور!

سيبدو أفضل كما لاحظ زميلي سراج لوظيفة كبير الياوران، يقف بجانب الرئيس ليبتسم نيابة عنه، وحين يتسلم السيد الرئيس باقات الورد أو بعض الهدايا التذكارية، يقوم هو بتسلم الهدايا من السيد الرئيس، ليس من الحكمة أو البروتوكول أن يبق السيد الرئيس طوال اليوم يحمل باقة ورد، أو صندوقاً صغيراً محشواً بقطع الشوكولاتة البلجيكية، كما يرسله السيد الرئيس لينوب عنه في بعض الاحتفالات الصغيرة التي لا تستحق من أجلها إقلاق راحة الحرس الرئاسي.

لم يشعر سراج ومنذ اللحظة الأولى بالارتياح تجاه الرئيس القادم، كأنه شعر أن الرجل سيكون سببا بعد أسابيع قليلة في موته.

قال سراج هامساً: لا يصلح رئيساً، يصلح شبيهاً للرئيس، يحضر نيابة عنه الاحتفالات أو المناسبات التي يكون فيها تهديد أمني على حياة رأس الدولة، فيتلقى طلقات المتمردين نيابة عن السيد الرئيس، ثم ضحك سراج وأعلن: لقد عثرنا على الشبيه بقي فقط أن نعثر على رئيس يشبهه! هل تعتقد أنّ ضابط جيش يخلع بدلته العسكرية كل مساء ويتحول الى شيخ يعالج المرضى بالحُب! يمكن أن يصلح رئيسا؟ كرّر سراج العبارة كأنه يريد إقناعي بفكرته: عليك إبلاغ حزبك فورا، لقد أنجزنا الجزء الصعب من المهمة، عثرنا على شبيه الرئيس، عليهم الان فقط البحث عن رئيس يشبه الشبيه!

إعتقدت انه يمزح رغم انني شعرت أنه يخفي شيئا ما، قلت: ولماذا ينزع ملابسه العسكرية ويتحوّل الى شيخ؟ هل يحتاج الى دخل إضافي؟

ضحك سراج وقال: لا يحتاج الى المال، يحتاج أكثر للحُب!

سراج كعادته تحرّك بسرعة، حين توقفنا لشرب القهوة في مقهى قريب من بيت ضباط الجيش، وحتى نجد شخصا يصف لنا الطريق الى البيت. تركني سراج وذهب ليجلس مع بعض اللاجئين الأثيوبيين، في المساء باح لي بالسر الرهيب: السيد العميد لديه عمل إضافي في أيام الجمعة و العطلات الرسمية! حسبته يمزح، أوضح لي: يتحوّل إلى شيخ يعالج بالسحر! يشرب برميلاً من الخمر أثناء أيام الأسبوع وحين ينتهي الأسبوع يحرز توبة مؤقتة من الخمر ويرتدي ملابس شيخ، ضحك وقال: لا بد انه مثل ذلك الشيخ الذي كان يشرب الخمور سراً، وحتى لا يعرف مرافقيه من الحيران بأمره كان يضع الخمر في إبريق الماء الذي يستخدمه للوضوء، ذات مرة هجم أحد المريدين على الإبريق حتى يأخذ البركة من بقايا مياه وضوء الشيخ، حاول الشيخ انتزاع الإبريق الملئ بالخمر من المريد الذي إختطف الابريق وفرّ هاربا، وحين لم يفلح صرخ فيه محققاً المعجزة السهلة: إنشاء الله سيتحول الماء إلى خمر أيها النجس اللزج!!

لديه عيادة مخصصة للاجئين، يقوم بطرد الشياطين مستخدما أفضل علاج لطرد الشيطان: الموسيقى والحب! يستخدم أسلحته بفعالية لطرد الشيطان من الجسد، حين يستسلم الشيطان لسحر تخدير الموسيقى، يمسك به من عنقه ويسحبه خارج الجسد! فتستعيد المريضة الجميلة عافيتها، لا يعالج النساء غير الجميلات أو المسنات، حين لا تثير المريضة إعجابه يعلن لمرافقيها أنّ الاوان قد فات على علاجها، وينصح بنقلها للمستشفى!

بدأنا العمل فوراً لكتابة التقرير، لم نخبر أحداً أننا حضرنا خصيصاً لرؤيته بعد أن رشّحه بعض معارفه داخل حزبنا الذي كان يدبّر للقيام بإنقلاب عسكري، ليكون هو الرئيس القادم. كان الحزب بحاجة لعسكري في المرحلة الأولى حتى يتمكن

من مفاصل الدولة، وحتى يعطي الانطباع داخلياً وخارجيا إنّ التغيير الذي سيحدث هو مجرد إنقلاب عسكري، مثله مثل عشرات الانقلابات العسكرية التي تحدث كل عام من حولنا، كانت وجهة نظر المعارف والأقارب الذين رشّحوه للمهمة، تعتمد على معرفتهم لشخصيته، أنه لا يملك طموحا للقيادة ولا حتى لقيادة مركب شراعي، وإنه لولا أن والده دفعه دفعا للدخول للكلية الحربية لم يكن يطمح سوى أن يصبح سائقا لإحدى البصات السفرية، كان يحب السفر وتثير فيه أصوات العربات التي تنطلق من المدينة كل صباح لتبتلعها الصحراء، شعورا بحنين جارف للحرية ولحياة صاخبة لا تقيدها قيود، حين دفعه والده للدخول إلى الكلية الحربية لم يهتم كثيراً لتغيير قدره، فإحدى فضائله القليلة أنه كان لا يكترث كثيراً، إذا حدث تغيير ما في حياته، لم يكن يتوقف ليسأل لم حدث ذلك، كان يكتفي بتغيير إتجاه شراع مركبه باتجاه الرياح التي تهب في تلك اللحظة أيا كانت جهة هبوبها!

حين طرقنا باب البيت فتح لنا أحد الضبّاط الباب، كان شاباً لطيفاً، باسم الوجه، متوسط الطول يضع نظارة طبية تكاد تغطي وجهه النحيل كله، يبدو انه وصل إلى البيت قبل حضورنا مباشرة أو كان على وشك الخروج، فقد كان لا يزال يرتدي ملابسه العسكرية.

عرّفنا باسمه : النقيب عبدالله ، سألته عن اسم الشخص الوحيد الذي أعرفه وكان يعمل مع الجيش قبل سنوات، لم يتعرّف عليه، شرحنا أننا حضرنا في مهمة صحفية لتغطية أحوال المدينة في ظل الحرب وكتابة تحقيق عن النازحين وضحايا الحرب الأهلية، وقد سمعت أنّ أحد زملاء طفولتي يعمل أيضاً مع نفس حامية الجيش فرغبت في أن أراه.

نجحت خطتنا فقد أصرّ الضابط حين عرف أننا حضرنا من العاصمة على أن ندخل، بل وأن نبق معهم لحين إنتهاء مهمتنا، قال لنا أن فنادق المدينة التي دمّرتها الحرب الأهلية غير نظيفة، تتقاسم فئرانها الغرف والطعام مع النزلاء، معظم الغرف لا يتم تركيب سلك النملية في شبابيكها ولا توجد مراوح سقف تخفف من القيظ وهجمات البعوض، كما أنّ خدماتها سيئة وغير آمنة أيضاً، بسبب وجود

أعداد هائلة من النازحين واللاجئين من حروب أخرى على امتداد القارة، ويمكننا أن نبق معهم ما دامت زيارتنا قصيرة.

لم نقل أننا حضرنا خصيصاً لنرى العميد حسن عبد الرحمن، ونرى كيف يعيش وكيف يفكر، وماهي طموحاته في الحياة، وكيف يتعامل مع الناس من حوله، لنكتب تقريراً نوضح فيه رؤيتنا إن كان الرجل سيصلح ليكون الرئيس القادم، مفروض أن التقرير الذي سنكتبه عنه سيكون حاسماً في تحديد مصيره، هل سيقضي بقية عمره في هذه البلدة الغارقة في الألغام، يزيح لغماً من طريقه ويجلس للعب الورق، ويطارد اللاجئات الأثيوبيات في ليالي الخريف حين تخف حدة الحرب، أم سيذهب إلى القصر رئيساً.

في البداية لم نر شيئاً يستحق تسجيله، كان المكان غارقا في دخان الشيشة و السجائر الرخيصة، وكان هو شخصياً ، يضع أمامه على طاولة اللعب جوالاً صغيراً من التبغ المحلي، لصناعة السجائر لم يكن يستخدم ورق اللف الرقيق، بل ورق عادي من النوع المستخدم مع ماكينات التصوير، كان صعباً علينا في البداية أن نصدق أننا في حضرة الرئيس القادم، لا ينقصه سوى عصا ضخمة يمسكها بيديه خلف ظهره ليبدو مثل تاجر مواشي في أحد أسواق المواشي البعيدة ، كان يرتدي جلباباً ضخماً ويضع على رأسه الضخم طاقية متسخة يقارب حجمها حجم إطار سيارة من النوع الصغير.

يبدو محشوراً في جسده، كأنّ شخصا آخر يشاركه نفس الجسد، رغم ضخامته، لكنه يعطي إنطباعاً أنّ حجمه الحقيقي أكبر كثيراً من حجم جسده، عيونه الواسعة لا يرهقها بالنظر إلى أبعد من ورق الكوتشينة الذي يحمله بين يديه ويخفيه داخل حجره، حين جلست بجانبه، أحاول اختلاس النظر إلى الأوراق التي يحملها، إكتشفت بسرعة أنه سرق الجوكر! لم يبذل أية جهد لتمويه السرقة فيما أجلس بجانبه، واضح أنه لم يكن يعطي وجود مدني بجانبه أية نوع من الاهتمام!

يا للكارثة هل سيصبح لص الكوتشينة رئيسا للجمهورية؟!

بدأت العمل فوراً، كان السؤال الأول: هل يُصلي؟ وكيف يصلي؟ وهل يؤدي الصلاة في مواعيدها؟

سمعنا بعد قليل صوت مؤذن بعيد يؤذن لصلاة المغرب، كان الصوت بعيداً تتخلله أصوات الريح التي تعبر فوق أشجار الهشاب، وضوضاء أصوات اللاجئين في المقاهي، وصوت صفارة قطار أو باخرة نهرية تعبر النهر الغارقة ضفتيه في وهج المغيب. يبدو صوت المؤذن كأنه يتسرب من وطن آخر، لا علاقة له بضجيج المدينة الذي بدأ يتصاعد مع حلول الظلام، كأنّ المدينة التي تقضي سحابة نهارها على وقع الرصاص، تنتهز فرصة هدنة الحرب ليلا لتستأنف الحياة.

لاحظنا تحرّك بعض الضباط لأداء الصلاة في غرفهم بينما بقي البعض في أماكنهم ومن ضمنهم رجلنا نفسه، قلت ربما لم يسمع الأذان، طلبت من الضابط الذي فتح لنا الباب أن يحضر لنا بساطا لأداء الصلاة، أشار لي إلى مكان المرحاض في ركن الفناء.

توضأت من برميل ماء صغير موضوع بجانب حوض حنفية الماء، بسبب انقطاع المياه كثيراً يُملأ البرميل الصغير بالماء لغسل الأيدي أو الوضوء. أدينا الصلاة أنا وسراج في الفناء، أثناء أداء الصلاة دفعني أحدهم لأقف في المقدمة، اعتقدت انه ربما سيكون رجلنا ، لكن بعد نهاية الصلاة اكتشفت أن النقيب عبدالله هو الذي انضم للصلاة بينما بقي رجلنا في مكانه.

يا للكارثة تنظيم إسلامي متشدد يستولي على السلطة، ويتقدم صفوفه ليصبح رئيساً، رجلٌ لا يصلي!

أحضر الضابط الذي استقبلنا كوبين من الشاي، وحاول أن يخفّف فتور إستقبال بقية الضباط المشغولين في عراك لعب الورق وتدخين السجائر الرخيصة وشرب خمر المريسة المحلية. سألنا كيف يسير عملنا، لم نذكر له بالطبع أننا بدأنا عملنا في تلك اللحظة بالذات. وأنّ الجوكر المسروق هو أول خطوة في التقرير المطول الذي سنكتبه، كان سراج لا يزال يعلّق الكاميرا حول صدره، وكان ذلك كافيا

لإقناع كل من يتشكك حول مهمتنا الصحفية. والحقيقة أن الضباط المنشغلين بمعركة المساء لم يعتادوا كثيرا على الاهتمام بما يفعله المدنيون، سواء ذهب المدني في مهمة أو بقى في البيت فلن يمكن ملاحظة أية فرق! هكذا صرّح الرجل بعد أن لعبت الخمر برأسه الضخم، لم أصدّق في البداية أن الخمر يمكن أن تلعب برأس بمثل تلك الضخامة.

حين غرق الجميع بعد قليل في مقاعدهم من فرط السكر ولم يعد بمقدور أحدهم ولا حتى إلقاء الورقة حين يحين دوره في اللعب، واصل هو اللعب وسرقة الورق وكأنه لم يشرب قطرة خمر واحدة. ومع تقدم الليل لم يعد يهتم بالسرقة بحذر، كان يمد يده ويقتلع الورق حتى من يد زملائه السكارى ، فقد أصبحت حلبة اللعب والشراب مسرحاً له كممثل واحد. جمع حصيلة ما كسبه ووضعه في جيبه، ثم نظر إلينا كأنه يرانا للمرة الأولى، لا أدري لم خطر لي في تلك اللحظة أنه عرف بمهمتنا و سبب وجودنا في ذلك البيت ، لكن ذلك لم يدم سوى ثانية واحدة استعاد بعدها لا مبالاته..

بعد العشاء بدأ دخان المعارك ينجلي في المكان، اختفى العميد حسن عبد الرحمن في غرفته ، عرفنا أنه الوحيد الذي يسكن في غرفة لوحده بسبب شخيره الشبيه بشخير فيل مسن، اقترح النقيب عبدالله أن يخلي لنا الغرفة التي يتقاسمها مع ضابط آخر لكننا رفضنا بشدة وفضّلنا النوم في صالة البيت، كان هناك سريران من الحديد في جانب الصالة يبدو أنهما معدان للضيوف، أحضر لنا النقيب عبدالله أغطية قطنية خفيفة، وأوضح لنا أنّ مروحة السقف التي تخفف من هجوم البعوض تتوقف أحيانا بسبب انقطاع الكهرباء فيفضل أن نستخدم الأغطية الخفيفة رغم حرارة الجو لنحمي أجسادنا من لسعات البعوض.

وردة عبّاد الشمس اللامعة

أشار ضابط الجيش بعصاه تجاه القرية النائمة في سلام الفجر الوليد، وقال رافعا من صوته قليلا حتى لا يطغى عليه صوت هياج العصافير، وضوضاء أشباح الجنود من حوله:

حين تشرق الشمس أود إستلامها خالية من أية بشر أو حيوان!

في الداخل استيقظ دينق تحت وطأة شعور ساحق بالخطر، كان هواء موسم الجفاف راكدا من حوله منذ الأزل، كثيف مثل الوحل، مشبع برائحة الأرض، روث الأبقار، ورائحة أشجار المانجو المثقلة بالثمار.

أول ما خطر بباله حين بدأت صور حياته تتدفق من أمامه مثل نهر من الذكريات يجرفها ضوء الصباح من الحلم الى الذاكرة، كانت نياندينق التي يسميها وردة عباد الشمس اللامعة، لا يراها كل صباح الا حين تشرق الشمس، حين تمشي نياندينق تحاكي وردة عباد الشمس في تتبعها للضوء، في أحيان كثيرة كان يشعر أن العكس صحيح أيضا حين يرى الشمس تتبع نياندينق، حين تخرج نياندينق من البيت، تخرج الشمس من بين الغمام الكثيف حتى أثناء هطول المطر.

للمرة الأولى في حياته لم يرغب في أن تشرق الشمس، حين تشرق الشمس، يرى نياندينق، يخرجان الى المرعى مع بقية الصبية، حين تشرق الشمس، يبدأ يوم

جديد، يقطع مسافة اخرى في رحلته نحو البلوغ، الى اليوم الذي يتم تدشينه رجلا في إحتفال جماعي يرعاه صانع المطر، فيصبح ممكنا أن يتقدم للزواج من نياندينق.

كل يوم يمر، يقرّب مسافة الانتظارويقلّل من خطر أن يتقدم رجل آخر لخطبتها، آخر من تقدم لها كان ذلك الفتى المحارب الذي حضر قبل أيام، بزي المحارب الذي يعطيه مظهرا شبيها بطائر كيلولورو المقدس، عابرا منطقة المستنقعات الخطرة بوحوشها وأفاعيها السامة، ليحظ برؤية نياندينق.

كل يوم يمر يقرّب الطريق الى عينيها، يشعر أحيانا بالخوف من طقوس يوم التدشين، جروح الجبهة، والحفرة تحت رأسه التي ستمتلئ من دمه، يغطي خوفه من الدماء، بصورة نياندينق التي ستصبح أكثر قربا، بطقوس الرقص الذي يحبه، أكل السمك، وروح الأسلاف التي ستباركه، وأغنية التدشين التي حفظ مقطعها الأخير:

نياندينق يا إبنة كور

من فضلك أطردي الكلاب بعيدا،

فهي تلعق الدماء،

ففي صراعي مع ذكر البجع

أواجه الموت .

لا يلاحظ رغم روح الأسلاف التي رعت مولده المتعسر، وشفته من المرض في طفولته الباكرة، أن تأخُر يوم تدشينه (1) بسبب فشل موسم الحصاد سينقذه من الموت.

سحب جسده من فراشه وخرج بحثا عن نسمة تغسل وجع قلبه، فرأى الشاهد الوحيد على المجزرة يترنّح في سراب الفجر الوشيك، كان القمر يطل من خلف أشجار المانجو كأنّه يتلصص على السكون الذي يسبق العاصفة.

حين خمدت العاصفة بغتة، إندلق ضوء القمر، كأنه كان محبوسا في مكان ما، كأنه يمسح كل آثار العاصفة التي أوشكت على إفراغ الصحراء من رمالها.

وجدنا أنفسنا في ضوء القمر، كنا نقف في صف واحد كأننا كنا نؤدي صلاة على ميت تبخّر في العاصفة، ثيابنا كانت تشع بضوء فسفوري أزرق خفيف، لا بد أنه نجم عن حمّام الضوء الذي أعقب العاصفة، والذي جعلنا نختبر شعورا جماعيا ليس فقط بنظافة أجسامنا من التراب ولكن بالإرتواء من ماء كثيف تسرب مع ضوء القمر الى مسام أجسادنا.

صوت أقدام أعاد تشغيل الزمن المتوقف منذ خمود العاصفة.

جاء رجل آخر، صرنا عشرة رجال

الرجل العاشر كان الوحيد الذي نراه قادما من على البعد، كان يبدو وكأنه يقاوم قوى مجهولة تصده عن الوصول الينا، شعرنا به يسحبنا الى زمانه، يبدو واثقا رغم خطواته المرتبكة، كأنه الوحيد الذي كان يعلم من نحن وأين كنا في تلك اللحظة.

قال من بدا أصغرنا سنا: هل يستطيع أحدكم تحديد أين نحن الآن؟

نبهنا كلامه الى أننا كنا موجودين في مكان ما، وكانت لنا حياة وذكريات قبل أن نجد أنفسنا في هذا المكان.

رغم أن الرماد الفسفوري الناجم ربما عن إنفجار بركاني والذي كان يغرق العالم من حولنا، كان يعطي إنطباعا فوريا بأننا ولدنا في تلك اللحظة، بل أن كل الاشياء

من حولنا: أشجار السنط، أشجار الطندب، الصخور، الأرض، القمر نفسه، كانت تبدو بفعل العاصفة جديدة كأنها صنعت للتو .

غربلنا الصمت من حولنا: حاولنا العثور على أية إشارة تساعد في تحديد مكان وجودنا،

لا شئ سوى فضاء الصحراء.

قال من بدا من رنة صوته الخائفة، وسؤاله المتعجل، وهو يمشّط السماء بحثا عن أثر ما، أقلنا خبرة: هل سننتظر بزوغ الثريا؟ شعرنا بالرعب من رنة صوته، شئ ما في صوته كان يشير الى أنه كان يخاطب مجموعة من الموتى.

نظرنا الى السماء التي بدت لنا أبعد مما كانت في عوالمنا السابقة، فلم نر شيئا سوى قمر حزين بدا عليه رسم قديم يشبه مركبا شراعيا يبحر دون هدف .

قال لنا شخص يشبه الشيطان ظهر فجأة في الفراغ من أمامنا، تُغطي وجهه سحابة من دخان التبغ : أذهبوا من هذا الطريق!

نبهنا صوته الشيطاني لحقيقة أننا لم نكن نعرف بعضنا البعض، ولا نعرف كيف حضرنا الى هذا المكان، تبخّر الرجل ونسي في غمرة عجلته أن يكرر إشارته الى الإتجاه الذي يجب أن نسلكه، فبسبب كثافة دخان التبغ لم ير أحدنا الى أين أشارت يده الغارقة في شعر كثيف .

لابد أننا ضللنا الطريق.

لكن كيف نفسّر النسيان الجماعي لما حدث لنا.

حتى السؤال نفسه بدا لنا غريبا جدا.

من نحن؟ وكيف جئنا الى هذا المكان؟

حاولت أن أمسك من حولي بأية أثر يصلح بداية للتعرف على المكان، تذكرت عجوزا ضاعت صورته في العاصفة، علّمني كيف يجب أن أتعرّف على الأثر وكيف أحدد مكاني حتى أثناء هبوب العواصف، وجدت في يدي شيئا يشبه قلما ضخما، يبدو أنني كنت أكتب شيئا ما، فقد وجدت في أصابع يدي آثار حبر أزرق وألوان مختلفة .

أمسك عبد الرحيم بقلم الخط الضخم وكتب على القماش: إنتخبوا إبنكم البار

قال الطاهر: بمناسبة البار هذه، وبمناسبة العاصفة التي تكاد تقتلع البيوت في الخارج أقترح أن نذهب لبار العاصفة! (كانوا يطلقون إسم بار العاصفة على بيت لشراب الخمور خارج المدينة تديره سيدة مسنة، بسبب زحام الناس خصوصا في الامسيات يبدو البيت وكأنه غارق في عاصفة مسائية) السلطة مشغولة بالعاصفة لن يداهمنا أحد هناك!

قبل ان يدخلوا الى بيت الشراب قرروا قضاء ساعة واحدة والعودة لإكمال ما بدأوه من عمل، حين مرّت الساعة الاولى، كانوا قد فرغوا للتو من شراب الكأس الاولى. قال الطاهر: لن ينهار العالم اذا قضينا ساعة اخرى، قضوا عدة ساعات ولم ينهار العالم، كانت العاصفة لا تزال تزعق في الخارج، طلبوا عشاء، على أمل أن يغادروا بيت الشراب بمجرد تناولهم للطعام.

بعد العشاء قرّر عبدالرحيم أن كأسا واحدة لن تأخذ وقتا طويلا، لم يكن في حاجة لإقناع زملائه، لكنه إستمر في شرح وجهة نظره: هب أنه فاز في الانتخابات، كلما سيفعله انه سيذهب للنوم في البرلمان، ولن يستيقظ الا في الجلسات التي تناقش زيادة مخصصات النواب وحصولهم على سيارة جديدة، ومجرد أن يقترح أحدهم مناقشة آثار قرار رفع الدعم عن الدواء على الطبقات الفقيرة حتى يعود الى النوم مرة اخرى!

في الصباح حين إستأنفوا الشراب، إكتشفوا أنّ العالم مستمر في صموده، وأنّ شيئا لم يتغير رغم العاصفة التي إستمرت بضراوة في الخارج.

تنبأ دينق: لن تكون هناك ذرة تراب واحدة بقيت في الشوارع!

إقترحت عليهم أن نغادر بمجرد تناول طعام الافطار، كان إقتراحا جيدا لأنني لم أطلب المغادرة على الفور ولم اربطها بزمن محدد، لا يعرف أحد متى يجب أن نتناول إفطارنا.

بعد الافطار قال الطاهر: أية جنون دفع هذا المعتوه على الترشح ضد مرشّح السلطة! وما ذنبنا نحن نتحمل عبء هذه المهزلة، ليخلد هو للنوم في البرلمان كما قال عبد الرحيم!

ساعده عبد الرحيم: وحتى إن استيقظ، هل يستطيع برلمان كل إعضائه جاءوا بالتزوير والرشاوي أن يغيّر شيئا! سمعت أن البرلمان السابق قام مرة واحدة بإستدعاء أحد الوزراء لاستجوابه حول مسألة مستعجلة، رفض الوزير الحضور متعلّلا بأنه مشغول بحل مشاكل الوطن! بدلا من توجيه اللوم له وطلب إقالته من منصبه، أعلن رئيس البرلمان أن الوزير مشغول ويجب أن ندعو الله أن يساعده في حلّ المشاكل المستعصية التي يعمل على حلها! قوة البرلمان تكمن في معرفتهم أنهم لا يملكون أية قوة! لذلك ينشغلون طوال دورتهم بمناقشة زيادة مخصصاتهم، وإرسال رسائل التهنئة الى رئاسة الجمهورية بمناسبة حلول الأعياد الدينية، وحتى لا ينتابهم أية شعور بأنهم لا يستحقون أجورهم والزيادات المقترحة، والسيارات الجديدة، يقومون مرة واحدة في العام بمناقشة وإجازة ميزانية الدولة التي تكون قد أجيزت قبل عرضها على البرلمان!

عادوا بعد ثلاثة أيام وهم يترنحون، سقطوا جميعا أرضا وإستغرقوا في النوم بين اللافتات الانتخابية التي لم تنجز بعد.

في اليوم التالي، قرّروا أنه ضاع زمن طويل ويجب البدء في الحملة الانتخابية بهمة مضاعفة .

كان الطاهر قد إستيقظ للتو حين شرع البقية في إكمال الشعارات الانتخابية، أفاق من ذكرى الثلاثة أيام المنصرمة على عبارة: من أجل دولة الحرية والمؤسسات!

قال: هل يوجد لدينا نظام ديمقراطي؟

وقع السؤال مثل الصاعقة لكن أحدا لم يهتم به، أمسك عبد الرحيم بالقلم:

انتخبوا إبنكم الب.. تذكّر أن الابن نفسه لم يكن بارّا أبدا ولا حتى بوالديه، قبل أعوام، حين بلغ الخامسة عشر، إستيقظ من النوم في الخامسة صباحا وأنسل بين والديه النائمين في سلام الفجر، إستيقظت والدته في اللحظة الأخيرة، لتراه للمرة الأخيرة في حياتها، نادته:

الى أين تذهب يا ولدي؟ ضوء الفجر لم يشرق بعد!

قال كاذبا، سأذهب لأرى إن كانت صنارتي قد أمسكت بشئ !

كان يحب السمك، وبسبب السمك أحب نهر النيل نفسه، رغم أنه ولسنوات نظر اليه كوحش يبتلع الصغار، فالمرة الأولى في حياته التي رأى فيها شخصا ميتا، كانت حين تجمع الناس ذات يوم جوار النهر ورأى نسوة يبكين فيما إنهمك بعض الغجر في تمشيط مياه النهر قبل أن يستخرجوا جثة فتى، كان الصبي لا يزال مبتسما حين رآه، عرفه بسرعة، كان قد قدم قبل أيام من العاصمة التي يقيم فيها لقضاء العطلة مع جدته، ورغم الخوف الذي داهمه من مشهد الموت حتى أن الكوابيس ظلت طوال ليال تطارده، لكنه شعر بعد أيام بفرح خفي، فقد كان مدينا للفتى بجنيه واحد ثمن نظارة شمسية إشتراها منه .

سحبت والدته الغطاء الخفيف فوق رأسها بعد أن تبسملت وتعوذت، ولم تره (إبنها الوحيد) مرة أخرى الى الأبد!

عاد بعد أربعين عاما، بحث عنه والداه في العالم، حين سمعا إنه يعمل في مركب شحن إنجليزي، سافرا الى السويس وبقيا هناك عدة سنوات أملا في ظهوره، وحين طال الغياب، وبدأت أشباح الموت تطاردهما للعودة الى حيث يجب أن يموتا، عادا الى البيت الذي كادت ملامحه تختفي تماما بين كثبان الرمال ونبات الحلفاء، حتى أنه تعين شق الطريق الى داخل البيت بإستخدام المعاول، وفي ضوضاء الحياة التي تملأ هواء موسم الدميرة ماتا من الشوق، حين جاء الجيران وجدوا جثتي الزوجين غارقة في ماء الحنين ورائحة ياسمين صباحات الفتى الغائب فيما وراء البحار.

عاد بعد أربعين عاما، وبسبب الطاعون وغزوات الجراد وعدة إنقلابات عسكرية لم يتعرف عليه أحد حين دفع الباب ذات مساء وقال بنفس طريقته القديمة، حين كان يحاول جعل عودته الى البيت، حدثا عاديا ليفلت من المحاسبة بسبب غيابه طوال النهار دون أن يخطر أحدا:

لقد جئت الآن!

وجد شقيقته وأطفالها يسكنون البيت منذ أن توفي زوجها قبل أعوام وإضطرت لهجر المدينة، لم يتذكره أحد في القرية، لكن الناس كانوا يصافحونه بحرارة، فقد بدت عليه آثار نعمة بائدة، ترقى لعصور ما قبل غزوات الجراد، وخوفا من أن يكون شخصا مهما أو أحد جواسيس السلطة، لكن حين بدأ يعرّف نفسه، إحتفلوا به بصورة رسمية، فقد كان آخر ذكر في السلالة المجيدة التي أنقذ مؤسسها القرية قبل قرون من غزوات القبائل المغيرة، ومن وباء الطاعون، ومن غزوة الباشا محمد علي الكبير. أصبح العمدة، لكنه شعر بجلباب العمدة أقصر من عصا ترحاله، والقصص الكثيرة التي مضى ينثرها على مسامع أهل القرية المبهورين ببقائه قيد الحياة رغم الأهوال العالمية التي مضى يحكي تفاصيلها المثيرة.

ذات يوم كان يترأس إجتماع مجلس آباء المدرسة الأساسية، كان الاجتماع عاصفا دار حول كيفية الحصول على مال لدفع مرتبات المدرسين الذين توقفوا عن العمل

بسبب عدم دفع الحكومة لمرتباتهم لعدة أشهر، بسبب الفقر الشديد وفشل الموسم الزراعي إقترح أحدهم إرسال وفد الى خارج الوطن بحثا عن المال من أبناء المنطقة المهاجرين، أثناء تعالي ضجيج الآباء كان هو مشغولا بقراءة صحيفة أحضرها أحد القادمين من الخرطوم، فجأة قرأ خبرا وجد فيه ضالته، أعلن على الفور:

سأترشح في انتخابات مجلس الشعب! يبدو أن الحكومة سترسل مرشحا غير معروف في هذه المنطقة.

قال له المدرس الوحيد الذي حضر الاجتماع: لكن لا توجد ديمقراطية في بلادنا!

ضحك وقال عبارة تصلح مثلا: ومن سيهتم لذلك في هذه الصحراء النائية!

ثم أوضح: السياسة مصالح، هكذا عرفنا في الغرب، هناك الحاكم الفعلي هو الشركات، التي تدفع الضرائب التي تعيش منها الدولة، يعطي الناس أصواتهم لشخص ما، يصفقون له حين يلقي خطبه الحماسية التي تنحاز للطبقات الفقيرة، للعمال، ثم تلمع عدسات المصورين لتضبطه في إبتسامته االأبدية، ثم لا يحدث شئ ذي بال، تظل الطبقات الفقيرة في فقرها، واذا حصلوا على بعض الدعم، يزيدهم فقرا لأنه يرفع فقط من سقف طموحهم وإستهلاكهم! أي أنهم يعيدون باليمين ما حصلوا عليه بالشمال، ويظل الناس يلهثون ضمن حدود القانون.

إلتقط المدرس الخيط: على الأقل هناك قانون، ثم إستدرك: لم أقصد ما قلت، قصدت أنهم لن يسمحوا لك بالفوز، هنا إستبداد أصحاب المال والسلطة، هم من يقوم بتنظيم الانتخابات وحراسة الصناديق وفرز الأصوات، يكون هناك دور رمزي لوكلاء المرشح الذين يحضرون عملية الفرز، لكن الصناديق تكون إستبدلت أو حشيت بأوراق مزورة قبل ذلك!

بدا الطيب الزين مستغرقا في التفكير ومحتارا قليلا ، حتى أنقذه أحد الآباء: سيصعب عليهم تزوير النتيجة، معظم أهل هذه الدائرة الانتخابية يعرفون بعضهم، وستكون النتيجة معروفة سلفا، لذلك سيستحيل عليهم تزويرها!

لا بأس قال المدرس، أنتم لا تعرفونهم، إن القرود التي حاربت في جنوب الوطن معهم هي التي ستتولى إفراغ الصناديق وإعادة حشوها! وستكتشف أنك أنت نفسك تحب وطنك ودينك بما يكفي لتقوم أنت نفسك بالتصويت لصالح مرشح الحكومة، دعك من الآخرين المساكين! والموتى الذين سيحققون معجزة عودة مشروطة من الموت للتصويت لمرشح الحكومة !

لكن الطيب الزين كان يبدو مصرا على المحاولة، قال: سيعرفون على الأقل مدى قوتنا وقدرتنا على حشد الناس!

قال المدرس: أو سيعرفون مدى ضعفهم، لكن صدقني هم يعرفون، أنهم ما أبقوا لهم من سند وسط الناس الذين سلبوهم حقوقهم، لكنهم يعرفون أنهم في اللحظة التي سيتنازلون فيها عن السلطة، سيتنازلون عن كل شئ بما فيه أرواحهم نفسها، لذلك لا تتوقع أن يقدّموا لك أية تنازل، قد يعطون شخصا ما قطعة عظم يلعقها وينشغل عنهم، منصبا ما، إن شعروا بأن له قوة أو تأثيرا، لكن أن يضطروا لإعلان إنّ الناس إختارت شخصا غير مرشّح العناية الإلهية!، فتلك هي الكارثة بالنسبة لهم.

حاشية: طقس التدشين عند بعض قبائل جنوب السودان، يتم فيه إعلان الأطفال رجالا بعد وصولهم سن البلوغ، بعمل جروح في الجبهة تبقى كعلامات واضحة بعد ذلك على تدشين الشاب، حيث يمكن للشاب بعد ذلك إختيار شريكة حياته، والشباب الذين لا يتم تدشينهم في موعدهم لسبب او لآخر يعتبرون أطفالا، فلا

يتعرضون للقتل في الحروب أو الغارات، حيث يتم في العادة قتل الرجال وسبي النساء والأطفال.

اليوم التالي كان يوم جمعة، وحتى لا نثير الشكوك حول مهمتنا قررنا أن نذهب الى سوق المدينة لقضاء بعض الوقت والتقاط بعض الصور على أن نعود مبكرا لنواصل مراقبة العميد حسن عبدالرحمن أثناء النهار.

رغم أجواء الحرب، لكن مطاعم المدينة ومقاهيها كانت تعج بالناس، لاحظنا وجود أعداد هائلة من النازحين من دول مجاورة، معظمهم من دولة اثيوبيا حيث الحرب الأهلية بين قوات الجنرال منجستو وجبهة التحرير الارترية في أوجها، ورغم أن المدينة كانت تقع على مشارف جبهات حرب مشتعلة جنوبا وشرقا، لكن الحياة كانت مزدهرة وأسواق الشوارع مليئة بالسلع المهرّبة، تجولنا في سوق المدينة، تحدثنا مع بعض الباعة والتقطنا صورا للحياة في المدينة. أمام إلحاح أحد الباعة قمت بشراء حذاء جلدي، الحذاء لم يكن جديدا رغم أنّ البائع كان قد بذل جهدا كبيرا لجعله يبدو مثل الجديد، لكنني لاحظت انه من جلد ممتاز لابد أنّ هذه الأحذية تسربت الى السوق من الاعانات التي تحضرها بعض المنظمات الكنسية وتوزعها للمتضررين من الحرب، سألنا عن مسجد نؤدي فيه صلاة الجمعة فعرفنا أنّ المسجد الرئيسي في المدينة كان قد تهدّم نتيجة للقصف، وأنّ هناك مسجد في منطقة قريبة خارج المدينة، تناولنا غدائنا في مطعم إثيوبي، يقدم وجبة الزغني التي أحبها كثيرا رغم أنها تسبب لي مشاكل في المعدة بسبب إحتوائها على كميات هائلة من التوابل، بعد الغداء عدنا الى البيت على أمل أن نسجّل بعض ما يقوم به العميد حسن عبدالرحمن في يوم الجمعة، لم نجده في البيت فإعتقدنا انه خرج في

مهمة عسكرية، لم نسأل عنه بصورة مباشرة حتى لا نعطي انطباعا اننا نتجسس عليه، سألت صديقنا النقيب عبدالله ان كانت هناك عمليات عسكرية او تحركات للتمرد، لكنه اوضح لنا ان الوضع اليوم هادئ عكس الأمس، لكن معظم الضباط يخرجون الى المدينة يوم الجمعة لشراء بعض مستلزماتهم والبعض يزورون اقاربهم، ثم ضحك وقال الوحيد الذي لا نعرف له مكانا يوم الجمعة هو العميد حسن عبدالرحمن! يقول إنه يذهب لزيارة ابن عم له من قدامى التجار الذين رحلوا للعيش في هذه المنطقة منذ سنوات طويلة قبل اندلاع الحرب، لكن بعض زملائنا يعتقدون انه يذهب الى أحد بيوت الشراب التي تعج بالفتيات الجميلات!

ضحكنا وكأنّ الأمر لا يعنينا، قلت لزميلي سراج حين خرجنا من البيت بعد قليل لنمشي قليلا في منطقة الغابة شمال المدينة، والتي أوضح لنا النقيب عبدالله أنها أكثر مناطق المدينة أمانا، حيث تدور المعارك في المناطق جنوب أو شرق المدينة، قلت لسراج إننا سنحتاج الى وقت أطول لمعرفة الرجل، وإننا يجب أن نبقى على الاقل لبضع أسابيع لنتأكد من أسباب إختفائه في أيام الجمع وستكون تلك أولى مهامنا. .

إقترح سراج أن نقوم بالذهاب للعيش في فندق صغير أو نبحث عن بيت، شرحت له انّ العثور على بيت ربما يكون صعبا مع الحرب وإنتشار اللاجئين، وحتى لو عثرنا على بيت فلن يكون إستئجاره لفترة قصيرة سهلا، وسيكون على كل حال من الصعب الحصول على بيت في منطقة وسط المدينة التي تعج باللاجئين وبعض المنظمات التي ترعى شئونهم، والمناطق البعيدة ربما لا تكون آمنة حسب ما فهمت من النقيب عبدالله، لذلك سيكون الفندق حلا أفضل، قرّرنا ان نزور في الغد بعض فنادق المدينة لنختار أفضلها، ثم اتفقنا أن نبلغ النقيب عبدالله انّ مهمتنا الصحفية جرى تمديدها لذلك سنبحث عن مسكن مؤقت، كما سنطلب منه ان يرتّب لنا مرافقة الحامية إن كانت هناك عمليات عسكرية في الفترة القادمة، وسنطلب منه أن يساعدنا لنرافق بعض زملائه الضباط الذين يطوفون المناطق المحيطة بالمدينة لنتعرف على أوجه الحياة في المناطق المتاخمة للمدينة.

رضخ النقيب عبدالله أمام إصراري على الانتقال الى الفندق، شرحت له أن مهمتنا جرى تمديدها وسأبقى كمراسل حربي للصحيفة لبعض الوقت، شكرته على الخدمات التي قدمها لنا وطلبت منه أن يساعدنا في الخروج مع الجيش في أية عمليات عسكرية، وإننا نرغب إن كان ذلك ممكنا في مرافقة بعض الضباط من الرتب المتقدمة في بعض جولاتهم التفقدية على الفرق العسكرية، وعدنا خيرا، نصحنا بفندق في وسط المدينة قال إنه في منطقة آمنة لأنها قريبة من نقطة الشرطة كما أنه نظيف وخدماته أفضل نسبيا من بقية فنادق المدينة.

عثرنا على غرفة في الفندق الذي كان يعج بعدد من التجار والغرباء، كانت غرفة صغيرة مقارنة بالغرفة التي كنا نسكن فيها في بيت الضباط، أرضية الغرفة كانت ترابية وهناك سريرين من الحديد وخزانة حديدية للملابس، افرغنا جزءا من ملابسنا في الخزانة، ثم خرجنا لتناول الغداء في مطعم في الخارج، تجولنا قليلا في سوق المدينة، حركة البيع والشراء عادية رغم إرتفاع أسعار بعض السلع عن أسعارها في العاصمة .

لم نستطع النوم في ليلتنا الاولى في الفندق بسبب انقطاع الكهرباء وعدم وجود فناء للنوم فيه حين تنقطع الكهرباء، كانت موسيقى صاخبة تنطلق طوال الليل من مقهى صغير مجاور للفندق، إرتدى سراج ملابسه وغادر الفندق، لم يستطع النوم بسبب الحر ولسعات البعوض ، خرجت خلفه حين جافاني النوم، كان المقهي المجاور للفندق مضاء بمصباح كبير وعدد من الشموع، جهاز التسجيل كان يعيد أغنية جايي تفتش الماضي للمطرب ترباس مثل اسطوانه مشروخة.

سراج إستطاع بسرعة أن يعقد صداقات في المدينة، تعرّف الى فتاة إثيوبية تعمل نادلة في مطعم قريب، الحياة في المدينة كانت تمضي عادية لولا أصوات إنفجارات بعيدة تسمع بين الحين والآخر، حتى العربات والمعدات العسكرية كانت نادرا ما تشاهد في المدينة، عدت بعد يومين الى بيت الضباط مرة أخرى لوحدي، كان سراج قد إستيقظ مبكرا وترك لي رسالة صغيرة يخبرني فيها أنه سيذهب في جولة مع صديقته الاثيوبية.

إنتخبوا إبنكم البار!

كان السؤال يبدو غريبا جدا حين ننظر حوالينا في نفس اللحظة، لبحر الرمال الذي يترامى من حولنا دون نهاية، لا شئ في مكانه حتى يمكن التعرف على أية معالم، لا الرمال هي الرمال، لا الليل هو الليل، لا القمر هو القمر، لا الزمان هو الزمان. كأنّ قوة خارقة مسحت العالم كله بفرشاة ساحر ورسمت في الفراغ عالما جديدا، دون أن تقوم بتثبيت كل شئ في مكانه، فبدت الأشياء كلها هائمة دون رابط ودون هدف، تجولنا بعيوننا في الفراغ من حولنا بحثا عن شئ نعرفه لنتشبس به، دون جدوى.

نظرنا الى أعلى، سرت رعدة في جسدي من يقين أننا لم نكن ننظر الى القمر، بل إلى شبيه مخادع، يملك نفس الوجه الفضي، والقدرة على المحافظة على نفس عاداته ضمن المجموعة الشمسية، نظرت في عيون رفاقي محاولا أن أستمد منهم القوة لأتغلّب على الخوف الكارثي الذي إجتاحني لفكرة: هل سنكون ضحية إنقلاب في السماء! قمر مزوّر، ظهر في لحظة فوضى شاملة في المجرة، هو الذي كان ينظر إلينا، يعبث بصورنا، حتى أنه يعيد عرضها بضوئه في قبة السماء، فرأينا وجوهنا بوضوح، عيوننا المفرغة إلا من نظرة الموت، أيدينا المتيبسة في وضع رأسي تبحث عن فراغ في الفراغ، كأننا كنا نشير لشخص ما ليتعرف على مكاننا قبل وقوع تلك الكارثة .

تجرأ أحدنا وقال بعد أن مسح بكم جلبابه الرمل الفسفوري العالق فوق عينيه: لا أعرف كيف وصلت الى هنا، آخر ما أتذكره أنني كنت أقوم بسقي أشجار النخيل التي جفت من العطش بسبب أن المياه غارت بعيدا في باطن الأرض، ولأن ريها بالماء صناعيا يكلّف مالا كثيرا لا أملكه، فقد تركتها تواجه مصيرها المحتوم، حتى جاء أحد أشقائي من خارج الوطن وأعطاني مالا لشراء وقود لسقي النخيل واعادة إحياء المزرعة التي كانت جنة صغيرة أيام حياة والدي، كان شقيقي قد غاب عدة سنوات، عرفنا بعد زمان طويل أنه قضاها في السجن بسبب مشاركته في مظاهرة ضد السلطة العسكرية بسبب زيادة أسعار الوقود وبعض السلع الغذائية، ثم غادر الوطن وفقدنا الاتصال به سوى رسائل متباعدة إنقطعت في

السنوات الأخيرة، حين عاد فجأة، حكى لي أنه كان يرى أبي دائما في منامه وهو يوقظه من النوم قائلا: كيف تخلد الى النوم وأشجار النخيل تموت!

دعوت بعض جيراني لنفير، قمنا بتنظيف بئر الماء المهملة منذ سنوات وأصلحنا محرّك الماء الهندي الصنع، إستغرق تنظيف عين الماء بعض الوقت، قام الشباب بإنزال مواسير طويلة داخل العين، وبواسطة آلة الشادوف تم شطف الحجارة وفتات الصخور من العين، ثم قمنا بتنظيف البئر من الرمال التي غمرت نصفها بسبب عدم الاستخدام. وحين تدفق الماء أخيرا مع مغيب الشمس، تركني الاخوة الذين ساعدوني في العمل لرغبتهم في الذهاب بعيدا لحضور حفل في قرية أخرى، عرفت منهم أن مغني وعازف طنبور معروف سيقوم بالغناء في الحفل، لا أدري لم شعرت أنني أعرف ذلك المغني، حين وصفه أحدهم قائلا: يبدو أن الحكومة لا تحبه، بسبب أشعار أغانيه التي تدعو للثورة على الظلم، الناس كلهم سكارى، لكن أنف الحكومة لا تشم رائحة عرق التمر الا في هذا المغني! قاموا بجلده عدة مرات أثناء الحفلات التي يقيمها، وحين يقومون بجلده، تفوح رائحة الخمور من كل مكان، الجميع يشربون، لا بسبب السعادة، بل ليغرقوا في النسيان، ويستمرون في وهم أنهم أحياء، هذه في الواقع هي النقطة الوحيدة التي نشعر فيها بأن الحكومة لديها أيضا شئ من الرحمة، حين تغض النظر عن الخمور التي نشرب، لكن إياك أن تتحدث عن الظلم أو العدالة حينها سيصبح الماء الذي تشربه خمرا، بقدرة الله، وصلاح القاضي والحكومة .

بعد رحيل الشباب إنشغلت في ري أشجار النخيل، مفكرا في اللحاق بهم إن فرغت من بقية عملي مبكرا، وفجأة سمعت صوتا يناديني من على البعد، تبعت الصوت الغريب وكنت كلما إقتربت منه شعرت به يبتعد، حتى وجدت نفسي خارج القرية بالقرب من المقبرة، اختفى الصوت الذي كان يناديني كأنه عاد الى أحد القبور، وحين قررت العودة سمعت صوت معاول تقوم بحفر الأرض، وجدت مجموعة تقوم بحفر قبر لشخص غريب توفي في القرية كما قالو لي، ساعدتهم في الحفر، كان شعور غريب ينتابني وأنا بينهم، كنت متأكدا أنهم نفس الاشخاص الذين

ساعدوني في تنظيف البئر، لكن شيئا ما كان يلجمني كلما حاولت أن أسألهم ان كانوا هم بالفعل نفس من كانوا معي قبل المغيب، لقد قالو لي أنهم ذاهبون لحفل ما وفجأة أجدهم يحفرون قبرا، كنت أشعر بإرتباك أحيانا وتختلط عليّ الصور فلا أعرف ان كنا لا زلنا نحفر في البئر ام نحفر قبرا. لقد تمت عملية حفر القبر بسرعة شديدة فالأرض كانت هشة رطبة وبدا واضحا لنا انّ بضع ضربات إضافية من المعول ستفجّر الماء في المكان، حتى أن أحدهم علّق قائلا: لابد أنّ الميت من أولياء الله الصالحين تتشوق الأرض لتضم رفاته، وقال أحدهم: لقد وجدنا معه كفنا، كأنه كان يعلم أنه سيموت تلك الليلة، قطعة الكفن كانت تبدو غريبة قليلا بالكلام المكتوب عليها، لقد قرأ أحدهم على ضوء مصباح الزيت المكتوب بحروف حمراء كبيرة:

إنتخبوا إبنكم البار!

إنتخبوا إبنكم ... فكر قليلا وكتب: الذي يحب السمك، ثم إرتدى ملابسه وقال: سأذهب لأرى ان كانت صنارتي قد أمسكت بشئ!

كان قد إلتقى بالامس صدفة بفتاة جميلة في سوق المدينة، تعثّر شقيقها الصغير وسقط أثناء مطاردته لبالون حمله الهواء، ساعده عبد الرحيم ونظف له ثيابه من التراب ولأن الهواء كان قد حمل البالون بعيدا، إشترى عبد الرحيم للصبي الصغير بالونا من متجر قريب، ثم قام بنفخ البالون. أثناء النفخ رأى شقيقة الصبي من خلال البالون الأحمر، بدت له وكأنها طفلة خرجت من أحد الأحلام، تبدو بعينيها الضاحكتين وكأنها معلّقة في الهواء من وجنتيها.

كرّر عبارته المشئومة: سأرى ان كانت صنارتي قد أمسكت بشئ! قال له الطاهر: عد بسرعة لن تنتظر حملتنا الانتخابية أربعين عاما أخرى!

كانت تبدو أكثر جمالا، جمال يشيع في قلبه حزنا برائحة ذكريات منسية، حين رآها عبر البالون كان جمالها وهي معلّقة من وجنتيها في الهواء، يبدو أقلّ حزنا. عبرا بين المتاجر الصغيرة التي تصدح فيها أجهزة الكاسيت: الفريد في عصرك

.. الزمان زمانك .. أهدي لي من فضلك نظرة.. عبرا بجانب الصبية الذين يرتدون ملابس يغطيها الغبار، يتبولون واقفين وظهورهم الى زحام السوق، يغسلون ببولهم غبار أشجار العُشر، وصفوف الحمير التي تهش جماعيا بأذنابها الذباب الذي يغلي في مؤخراتها، عبرا وكأنهما يسيران فوق السحاب، في غطاء الفوضى الموسيقية والغبار الذي تثيره سيارات الأجرة، حين تتوقف بسرعة، تلقي بمجموعة من الركاب، ثم تمرق بسرعة صاروخية وكأنها تهرب من جهنم التي أفرغت حمولتها من البشر فيها!

جلسا على حافة أحد حقول الذرة، كانت الشمس تنشر الذهب فوق حقول الذرة وضجيج الكاسيت والعالم الغارق في القيظ من حولهم، ثم خفتت الأصوات حين تسربت العتمة، سوى صوت نغم بعيد، عزف حزين على آلة الطنبور، كان يبدو كأنه يقود التغيير الكوني، يستبدل الشمس التي ينزف آخر وميضها فوق الظلام، بقمر فضي ينشر رماده فوق ضجيج الكاسيت وغبار أودية شجيرات الحلفاء.

يراها في العتمة الزاحفة، تماما مثلما رآها أول مرة من خلال البالون، طفلة صغيرة معلّقة من وجنتيها في الهواء، تعبث بكل شئ من حولها، يتحوّل الكون كله الى عشة صغيرة تكاد تضيق بجسديهما، تلعب حتى بالنجوم: تختار نجوما تائهة وتعيد وضعها مثل حجارة السيجة حول القمر، تنزعها، تلقي بها في الفراغ ثم تجمعها مرة أخرى وتعيد تشكيلها، يقول عبد الرحيم مازحا: ليتك تبرعين أيضا في نزع نجوم الجنرالات، قالت بسرعة دون أن تعرف لماذا تقول ذلك: بل أنت من يبرع في ذلك! بقيا مندهشين برهة بسبب عبارتها التي لم تستطع توضيحها، ثم تذكرت شيئا، بدا لها أنه يوضح كل شئ: قالت أنها رأته قبل أشهر، تعرفت عليه من العيون بنظراتها الحزينة الساهمة، والشعر المُرسل في كل الإتجاهات والقميص الكاروهات وبنطال الجينز، كان شيئا غريبا، ينطبق عليه الوصف، رغم أن تلك كانت المرة الاولى التي يزور فيها المنطقة منذ أن غادرها طفلا صغيرا، قالت له ربما كان حلما، لكنك كنت تقود مظاهرة!

أغلق الباب بعد قليل على منظر اللافتات الانتخابية التي تغرق الأرض وقال: لقد جئت!

يمسك الطاهر بالميكرفون بجانب السائق في السيارة المكشوفة التي يجلس بقية العشرة في مؤخرتها.

إنتخبوا ابنكم البار!

اليوم الليلة السياسية الكبرى، يهمس له حمد النور بشئ ما، فيعلن: يوجد أيضا مغن يؤدي أغنيات السيرة والعرضة، ومغن آخر يؤدي أغنيات الطنبور! لن نتحدث كثيرا حول الانتخابات، وحول برنامج مرشحنا لإحالة هذه الصحراء الى جنة حكومية، والحلول التي يقترحها لمشاكل الموسم الزراعي، ولمكافحة الفقر والأمية، سيكون هناك غناء! لن نكذب كثيرا الليلة، سنغني أيضا!

أيها المواطنون الثوار الأحرار، تلفت الجميع في اللحظة نفسها، بحثا عن الثوار الأحرار! يصعب التمييز بسبب العتمة والغبار بين الناس وأشجار العُشر الجافة، التي يتبول الصبية على هياكلها الناحلة التي تشبه هياكل البشر على حافة هذه الصحراء

عبروا بجانب جدار متهدم كتب عليه أحدهم بخط ردئ لكنه مقروء:

لا تنتخبوا عاق والديه! عرفوا من بعض المارة بعد أن تساقطت عليهم حجارة أجبرتهم على الانسحاب من الحي، أن المنطقة تقطنها عشيرة المرشح الآخر، العضو في تنظيم الحزب الحاكم.

ودّعتهم عبارات دون معنى منثورة على الجدران المتهدمة:

من يهرب من والديه، من سيضمن أننا سنراه مرة اخرى قبل الانتخابات القادمة!

لا تنتخبوا إبنكم الفار!

قال عبد الرحيم: الجدران لا تكذب! نبهه الطاهر: ليس مهما أن يفوز! لقد قبلوا قيادة الحملة الانتخابية رغم عدم إقتناعهم بفكرة الانتخابات نفسها التي يجريها النظام العسكري، فقط لأنها فرصة للتعرف على نبض الشارع والعمل قليلا بعيدا عن ضغوط الأجهزة الأمنية.

إنتخبوا إبنكم الفار! وجد عبد الرحيم الاقتراح الجداري جديرا بالمناقشة: من يهرب من والديه لا يصلح ولا حتى لدور مُهرّج، لا يصلح ولا حتى لنحاول من خلف ظهره إصلاح العالم!

قال السيد كأنه يريد فقط إثبات شئ يصعب إثباته : لكنه عاد في النهاية!

نظر عبد الرحيم عبر النافذة الى أعواد الذرة التي تبدو كأنها تقترب بفضل الريح من النافذة لتتلصص عليهم، وتذكّر المظاهرة التي قادها في الحلم، وخصل الشعر المتوجة بخيوط ضوء المغيب وقال: لقد قلت بنفسك، عاد في النهاية، حين إستهلك كل شئ، وأصبح العالم بالنسبة له مملا مثل الجحيم، لم يعد بسبب الحنين، العالم بالنسبة له مناديل ورق، حين يمسح غائط شهواته يستبدل منديلا بآخر، حين لفظه السجن، كما يقال، لم يبق من طريق أمامه سوى العودة.

قال الطاهر: ألا يوجد لديهم نظام ديمقراطي؟ لماذا دخل السجن؟

ضحك عبد الرحيم وقال: في أكثر الأنظمة الديمقراطية تحرّرا لن تكون محاولة إغتصاب فتاة قاصر، تعبيرا عن الرأي!

كان مصابا بالملاريا لذلك لم يخرج في اليوم التالي مع الحملة الانتخابية، شعر ببعض التحسن بعد أن أعطاه المساعد الطبي حقنة كلوروكوين، قال في سره: الحب أفضل من الكلوروكوين، تناول قرص أسبرين، واستلقى قليلا تحت مروحة السقف التي تقوم فقط بتحريك الجحيم داخل الغرفة، بدا له كأنّ صوت: (زيك.. زيك) الذي يصدر عن المروحة العتيقة كان يصدر من قاع روحه، أوقف مروحة السقف، فشعر بالجحيم يهبط الى روحه، أعاد تشغيل المروحة مرة أخرى،

ولتخفيف صوتها الذي يشعر به مثل سحق عظام على البلاط، قام بتشغيل جهاز الكاسيت الضخم الملقي أرضا، والذي يستخدمه أقرانه كمنضدة لوضع أكواب الشاي أو عرق التمر أو طبق العشاء، ولأنّ الجهاز يختفي تحت صينية العشاء أثناء الأكل، سيبدو وكأنّ صينية الألمونيوم هي التي كانت تغني، حتى أنها كانت تكمل أحيانا دورة كاملة بفضل الاهتزاز الشديد الناجم عن ضربات إيقاع ساحقة، ضاع صوت (.. زيك .. زيك) في فوضى الغناء. شعر عبد الرحيم بأعصابه ترتاح قليلا، كأنّ الضجة كانت تسحب الحمى من دمه، حدّق في المروحة قليلا وهو غارق بدمه في الأغنية، حتى شعر بالدوار، قبل أن يقرر الخروج.

لم يكن يشعر برغبة في قضاء حاجته لكنه خشي أن يشعر بذلك في حمى الحب، الملاريا تصيبه دائما بالإسهال، خنقته رائحة الأمونيا ففتح باب المرحاض قليلا، سمع صوت سقوط الغائط في البئر مصحوبا بصوت عراك الكلاب في الخارج، خرج الى المدينة، عبر شارع السوق الرئيسي، إختفى شارع الاسفلت في الحفر الرئيسية، بنفس ضجيج إختفاء الصباح في عينيها، شعر أنّ شخصا ما كان يتلصص عليه.

جلسا بين عيدان الذرة، من على البعد يسمعان صوت أجهزة كاسيت الباعة التي تبدو كأنها في سباق مع بعضها للوصول لمحطة شوق نهائية، مثل صبية الخلوة حين يتلون القرآن كلهم في وقت واحد، كل واحد يقرأ من جزء مختلف، ملأ عبد الرحيم صدره من هواء النهر المشبع برائحة حقول القصب، ونظر من خلال عيدان القصب الى النهر الذي إرتفع منسوب مياهه في الايام الأخيرة، كأنه يطارد أكشاك الباعة التي تنتشرفي نصف دائرة حول المرسى، كلما تقدم النهر قليلا فكك الباعة أكشاكهم وأعادوا نصبها على مسافة آمنة، لكنهم لا يجازفون بالإبتعاد كثيرا عن النهر والا إنقطع رزقهم، أثناء نقل الاشياء لا تتوقف أجهزة الكاسيت للحظة، صوت المغني مخنوق بالغبار والحزن وسأم التكرار، يمكن الاستغناء عن أي شئ، عدا فوضى الموسيقى والغناء.

قال عبد الرحيم مشيرا للنهر من بين أعواد الذرة مستوحيا تفسيرا فلسفيا للهروب اليومي للباعة بحوانيتهم الخشبية أمام النهر: النهر أشبه بوحش طيب، يعطيك مالا لكنك لا تجرؤ على الاقتراب منه كثيرا وإلا فتك بك! يخافون منه ويعيشون عليه! تذكر أنه هو نفسه كان لا يشعر بالسعادة إلا يوم الذهاب للسباحة في نهر النيل، لكنه كان في ذلك الوقت ممنوعا من الذهاب الى النهر وحده، رغم أن النهر كان قريبا من البيت، كان جده يحضر مرة واحدة كل أسبوع ليصطحبه هو وأخوته الى النهر ويجلس قريبا منهم يراقبهم، حتى لا يجرف الموج أحدهم. فكر في حتمية أن الشعور باللذة يكون دائما محفوفا بالألم، أن أية لحظة سعادة تفقد قيمتها حين لا يهددها خطر ما..

شعر بأنه أفضل كثيرا، رغم أنه تأخر عن موعد حقنة الكلوروكوين الثانية حسب الموعد الذي حدده المساعد الطبي، لكنه شعر أن دواء الحب يعطي مفعولا أفضل من الكلوروكوين. حين نام في المساء، رأى نفسه في نفس المشهد الذي روته سناء، يقود مظاهرة تتلوى مثل ثعبان في قلب المدينة، الفرق الوحيد أنه كان يقود المسيرة محمولا على أكتاف شخص ما فيما خيط من الدم الدافئ يتسرب من ثقب أحدثته رصاصة طائشة في عينه!

إسمها أبيبا، قال سراج، كنت مستغرقا في قراءة الصحيفة، فلم إنتبه الى حديثه، قال موضحا: أبيبا تعني الوردة! لقد حاول جنرالك التافه إغتصابها مرة!

إنتبهت عندئذ أنّ سراج كان يتحدث معي، قلت بسرعة حتى لا يفوتني شئ: هل قلت الجنرال؟ هل تقصد العميد حسن عبد الرحمن؟

قال سراج: هناك يعرفونه بالجنرال، رغم انه ينزع ملابسه العسكرية ويرتدي ملابس شيخ، لكن الجميع يعرفون أنه ضابط في الجيش، المكان الوحيد الذي لا يستخدم فيه البندقية لحلّ المشاكل! بدلا من أن يسبب الموت والجروح، يعالج حتى جروح النفس الأكثر نسيانا. يزيل كما يعلن، السحر والعارض، ويعيد الأزواج الآبقين عبر الحدود الى زوجاتهم! يقال إنه يخطئ أحيانا: فقد أعاد لإحدى النساء بدلا من زوجها الذي هرب بعد أن تعب من مشاكل تدبير العيش لاسرته، أعاد لها بسبب إهمال شيطانه الذي يساعده في العلاج، زوج المرأة السابق الذي طلّقها قبل عدة سنوات قبل أن تنجب منه أطفالا، وتزوجت بعده من الزوج الهارب!

جاءته أبيب، كانت تشكو من الحمى، في العادة كان يطلب من المرضى المصابين بالحمى مراجعة الوحدة الطبية او الذهاب الى المستشفى، طبعا يفضل معظم المرضى الذهاب للوحدة الطبية لأن المستشفى يعج بجرحى العمليات العسكرية. بدلا من أن يطلب منها الذهاب للمستشفى، أعطاها حبة دواء قال لها أنها افضل علاج لحمى الملاريا، كانت حبة منومة، بدأ رأسها يدور، فيما كانت على وشك أن تفقد وعيها لاحظت أنه بدأ يخلع ملابسه، حاولت الصراخ، لكنها لم تستطع، لحسن حظها جاءت في تلك اللحظة شقيقتها التي كانت ترافقها وبقيت في الخارج، وحين تأخرت شعرت بالقلق وإقتحمت غرفة الشيخ، لتفاجأ بمنظر الجنرال عاريا يستعد لخوض غمار المعركة الوحيدة التي يجيد تحقيق النصر فيها، صرخت شقيقتها بصوت عال، فخاف الجنرال من الفضيحة وإرتدى ملابسه بسرعة محاولا تهدئتها، زعم أنها طقوس ضرورية لطرد الشيطان! وأنّ الشيطان الذي يتلبس

شقيقتها من النوع المتمرس، الذي يرفض الاستجابة لطرق العلاج التقليدية ليغادر جسد المريض، وانه كان يستعد ليصارع الشيطان في معركة لا خيار فيها سوى النصر أو الموت.

يقول بعض اللاجئين أنّ الجنرال ضبط مرة وهو يمارس الجنس مع إحدى المريضات، أوضح انه لم يكن يضاجع المريضة، بل يضاجع الشيطان! وإنّ الشيطان اشترط عند التفاوض معه ليخرج من جسد المريضة أن يمارس المعالج الجنس معه وسيقرر بعدها إخلاء جسد المريضة.

اتضح بعد ذلك انه ضاجع المرأة والشيطان معا، وانّ الشيطان لم يخرج! يبدو أنّ الشيطان إستمرأ ممارسة الحب مع ضباط الجيش! ضحكت من فكرة الشيطان الذي يدمن ممارسة الحب! قال سراج: تبدو وكأنك تدافع عن الشيطان هنا!

قلت ضاحكا: طبيعي بعد أن تعرّفت بالعميد حسن عبد الرحمن، أن أشعر بالميل لكل الذين يناصبهم العداء بما فيهم الشيطان الذي يستغل إسمه ليمارس الحب مع مريضات نهاية الاسبوع.!

ضحك سراج وقال: سيكون رئيسكم القادم أول من ضاجع الشيطان! أتوقع أنّ من نجح في مضاجعة الشيطان، أن ينجح حين يصبح حاكما، هذا البلد بمشاكله الكثيرة يحتاج الى شيطان ليجد حلولا لمشاكله المستعصية، من يضاجع الشيطان يمكنه عمل ذلك!!

اتصل بي النقيب عبدالله في تليفون الفندق مساء، وأخبرني إنه حصل لنا على موافقة لمرافقة فرقة من الجيش ستقوم بعملية خاصة لتنظيف قرية مجاورة من بعض المتمردين. حذّرنا ان المهمة ستكون فيها مخاطر كثيرة واننا يجب ان نلتزم الحذر، سألته مدعيا عدم الاهتمام ان كان احد الضباط الذين التقيناهم في بيت الضباط سيكون مع الفرقة. بذلت جهدا ليبدو صوتي عاديا حتى لا ينكشف فرحي العارم حين قال لي: نعم سيقود الفرقة العميد حسن عبد الرحمن! .

أخبرنا ان ساعة التحرُّك لا تزال سرية لكنه سيخطرنا بها في أية لحظة، لذلك يجب ان نكون في حالة إستعداد دائم، لم يبد سراج حماسا للمهمة، كان يبدو غارقا حتى اذنيه في حبه، سراج لم يكن عضوا في تنظيمنا، كان يعمل في وظيفة مصوّر في الصحيفة اليومية التي يصدرها حزبنا، قلت له محاولا إغرائه: الصور التي ستلتقطها ستكون مفيدة للصحيفة، ستحصل مقابلها على أجر اضافي، فكّر قليلا كان واضحا ان المال لا يمثل لديه هما كبيرا، لكنه أعلن لي: سأذهب معك .

بقيت نهار اليوم التالي كله في الفندق ولم أخرج الا لدقائق لاتناول غداء سريعا وأعود لغرفتي لأكون مستعدا للتحرك في أية لحظة، حتى لا أفقد فرصة قد لا تعوّض لمرافقة الفرقة العسكرية، كنت أعوّل على تلك الرحلة كثيرا أملا أن تكون مشاهداتي فيها حاسمة في إتجاه التقرير الذي أكتبه، خرجت في المساء لأتمشى قليلا في المدينة، رغم الحرب تستمر الحياة عادية، كانت الكهرباء مقطوعة كالعادة، الجو لطيف في الخارج ومشحون برائحة زهور الاكاسيا، المطاعم تعمل على ضوء مصابيح كبيرة تعمل بالكيروسين، والموسيقى تصدح من أجهزة الكاسيت، وصوت الفنّان محمد وردي يصل الى اذنيّ عبر أمواج عبير الاكاسيا بقدرة خارقة على إستدعاء حتى أكثر الأزمنة ضياعا في النسيان.

تناولت عشائي بسرعة وعدت الى الفندق، تأكدت أن حقيبتي جاهزة بكل الاشياء التي أحتاج اليها خاصة أنّ النقيب عبدالله لم يكن يعرف المدة التي ستستغرقها عملية الجيش .

مسحت جسمي بزيت السمسم الذي يخفف حسب الاعتقاد المحلي من لسعات البعوض، ثم وضعت الراديو بجانبي واستسلمت للنوم، حضر سراج متأخرا لم أشعر به حين حضر لكنني استيقظت في لحظة ما قرب الفجر ووجدته نائما في فراشه.

في الصباح حين خرجت كان سراج لا يزال نائما، أخبرت موظف الاستقبال انني سأكون في المطعم القريب من الفندق إن إتصل بي أحدهم في الهاتف.

شربت القهوة، فنّان اثيوبي يغني في الكاسيت أغنية محمد وردي القمر بوبا، حملتني الأغنية بعيدا الى قريتي النائية في عمق صحراء الشمال، الى أمسية رأيت القمر فيها مكتملا فوق كثبان الرمال التي تفوح فوقها رائحة زهر الليمون ورطوبة النهر الموسمي الصغير الذي يعبر قريبا من كثبان الرمال .

اكملت فنجان القهوة، وجدت صحيفة قديمة ربما أحضرها مسافر ما من العاصمة ملقاة أرضا فرفعتها وبدأت في قراءتها، كانت صحيفة مستقلة لكن ميلها للحكومة الديمقراطية كان واضحا، وجدت مقالا حول إضرابات لبعض النقابات بسبب زيادة أسعار السكر.

قال الكاتب في مقاله: إننا في تعاملنا مع النظام الديمقراطي نتصرّف مثل طفل سعيد بلعبة جديدة، يحملها في كل مكان ويجرّب إستخدامها في كل شئ، حتى تتحطّم في النهاية، نحن بالفعل سعداء بالديمقراطية وحرية التعبير لكن يجب أن ننتبه حتى لا يؤدي الاستخدام السئ لتحطيمها! خاصة أن جهات كثيرة تتربص بالتجربة الوليدة. لا أعلم لم شعرت كأنّ كاتب المقال كان يعنيني تحديدا بالجهات التي تتربص بالديمقراطية، رغم أنني في النهاية مجرد مندوب، لم أفكر يوما في قلب أية شئ ناهيك عن حكومة! ومنذ أن إلتقيت بالرجل المرشّح لقيادة الانقلاب بت أكثر إقتناعا بجدوى الصبر على النظام الديمقراطي! ربما كان ذلك شعورا متقدما بالذنب حول المصائب التي سيجلبها حزبنا على وطننا بسبب ضياع التجربة الديمقراطية.

كنت نائما حين طرق أحدهم الباب بشدة في الصباح الباكر، وجدت موظف الاستقبال اخبرني أنّ أحدهم يطلبني في التليفون، كان النقيب عبدالله، لم يتحدث معي كثيرا، أبلغني فقط أنّ الرحلة ستبدأ بعد ساعة، وعليّ الحضور الى بيت الضباط فورا. إرتديت ملابسي بسرعة، سراج لم يكن موجودا، لم يحضر طوال الليلة الماضية، حملت كاميرا التصوير وبعض الاوراق ووضعتها مع ملابسي في الحقيبة الصغيرة، وانطلقت تاركا لسراج رسالة قصيرة مع موظف الاستقبال ليحاول اللحاق بي في بيت الضبّاط.

تمنيت أن يحدث أية شئ يعطّل إنطلاق العملية لحين وصول سراج، كنت أشعر بقلق غامض وأنني لن أراه مرة أخرى، حاولت أن أخفف من قلقي، سراج في أمان داخل المدينة أنا من سيكون في خطر، كنت اشعر بمسئولية تجاهه فسراج كان صديقا قديما لي، كان يمت لي بصلة قرابة ودرسنا بعض مراحلنا الدراسية سويا، وأنا الذي رشّحته للعمل كمصور في صحيفتنا، وجدت أنه سيكون الأنسب لمرافقتي وحفظ أسرار الرحلة، كان هناك بعض الاعتراض من بعض أعضاء حزبي لأنّ سراج لم يكن عضوا في حزبنا، لكنّ اصراري عليه وتأكيدي على ثقتي المطلقة فيه، دفعهم للموافقة، بجانب ثقتي فيه كنت بحاجة لمصور محترف لا يعطي فقط مهمتنا مصداقية بل أنها فرصة لتوثيق بعض مظاهر الحرب الأهلية.

إنطلقت العملية، أبلغني النقيب عبدالله أنه لن يرافقنا لكنه سيكون مع فريق متابعة العملية بأجهزة اللاسلكي، أعطيته تليفون الفندق وطلبت منه ان يتصل بسراج ويخبره انني ذهبت خارج المدينة وأن يكون حذرا ولا يخرج من حدود المدينة، طلبت من النقيب عبدالله أن أكون في عربة قائد المهمة، فأخذني فورا اليها، لم يعترض العميد حسن عبد الرحمن كما توقعت، لم يظهر على وجهه العسكري رفض أو ترحيب، واضح انه لم يكن يعطي وجودي أو عدمه أية إهتمام، نفس نظرة العسكر التقليدية للمدنيين.

يبدو أن العملية لم تكن كبيرة كما توقعت أن تخرج أعداد كبيرة من المدرعات وربما الدبّابات، لكننا خرجنا فقط في ثلاث عربات، عربة لاندكروزر يقودها القائد وناقلتي جنود. لم أكن أعرف شيئا عن تفاصيل العملية، جلست بجانب القائد الذي تولى قيادة السيارة بنفسه، جلس معنا جنديان داخل العربة، فيما توزع بقية الجنود على السيارتين، غادرت القافلة المدينة بسرعة، لم يكن منظر السيارات العسكرية في المدينة ملفتا للنظر، كانّ كل شئ يسير في المدينة بصورة عادية.

بدأت أتذكّر آخر حوار لي مع سراج قبل يومين، كان قد قال لي فجأة ونحن نجلس في المقهى الملاصق للفندق: ربما لن أعود معك الى العاصمة !

قلت مندهشا: لماذا؟ قال ببساطة:

سأتزوج أبيبا، هل تصدّق حين أخرج معها ونذهب لنراقب غروب الشمس في طريق الغابة شمال المدينة، يصاحبنا غناء القمري! الذي يصطف على جانبي الطريق فوق أشجار الهشاب، مثل نشيد وطني للحب! حتى أننا نشعر أحيانا وكاننا لا نمشي بل نطير، تحملنا أجنحة القمري بإتجاه الشمس!!

توقفت قليلا، إجتاحني حزن خفي، كأنّ حكاية النشيد الوطني الذي تؤديه القماري، يفتح في ذاكرتي كوة تطلّ على الموت! قلت محاولا بالضحك بصوت عال، فرض سطوة صوتي، على أصوات الخوف والقلق المتصاعدة:

هل حين يتزوج الانسان يجب أن يترك مكانه وعمله؟

قال : هناك منظمة أجنبية تعمل في خدمة اللاجئين يحتاجون لمصوّر!

ضحكت: هل هذا معقول يا سراج لقد بعتنا بسرعة عند أول عرض وجدته؟ هل نسيت صحيفتنا بسرعة، صحيفتنا التي كانت أول من أعطاك الفرصة للتدرب؟ هل نسيت عبدالعظيم، هل نسيت وداد؟

كانت زميلتنا وداد معجبة بطريقة سراج في إثارة الفوضى في المكان، يعمل في الصحيفة عدد من أعضاء تنظيمنا، لم يكن بعضهم سعيدا بجهاز التسجيل الذي يصدح بالموسيقى في غرفة سراج.

هذا المصوّر سيحوّل المكان الى سيرك !

كفانا الله شره! كل الاشياء التي يتعامل معها تجلب الشياطين، ألا يكفي رائحة مواد تحميض الصور، حتى يزعجنا بجهاز الموسيقى الشيطاني هذا!

وكان سراج يقول ضاحكا: الشيطان موجود على كل حال لم أحضره معي! حين حضرت لاستلام عملي إستقبلني الشيطان هنا!

كان يقصد أحد زملائنا الذي يتورط دائما في مشاكل بسبب شتمه في مقالاته لزعماء الأحزاب السياسية وزعماء الطوائف الدينية، التي لا تتفق مع تنظيمنا في خطه المتشدد.

كان أول شئ إعترض عليه سراج هو عدم وجود نساء في المكان! كان رأى المحافظين بعدم تعيين صحفيات في الجريدة هو المنتصر حتى تلك اللحظة، كان سراج يشتكي كل يوم بصوت مرتفع : كيف يستطيع الانسان أن يعمل في مكان ما يخلو من الجنس اللطيف؟ وهل تصدقون أن الرجال يعملون؟ في كل مؤسسات الحكومة تؤدي النساء العمل اليومي كله بينما يكتفي الرجال بالكلام، وقراءة الصحف، وحين يخرجون لتناول الافطار لا يعودون مرة أخرى لمكان العمل!

بسبب سؤال سراج الدائم عن الجنس اللطيف تمت مناقشة الفكرة مرة أخرى وتم الاتفاق على تعيين صحفيتين لتغطية بعض الشئون المحلية، على ان يخصص لهما مكتب منفصل.!

ضحك سراج وقال: لماذا انت قلق لأنني سأترك العمل معكم؟ سيفرح بعض شيوخكم هناك، إستجاب الله أخيرا لدعائهم أن يذهب الشيطان من صحيفتكم!

قبل ثلاثة أيام من بدء الاقتراع، قمنا بتكثيف العمل، فترت همة عبد الرحيم، لم يكن متحمسا منذ البداية للعمل مع الحملة الانتخابية، أقنعناه أنها فرصة لاستغلال تراخي أجهزة الأمن للعمل وسط الناس، نعرف أن الطيب الزين، لن يفوز، لا بسبب عدم شعبيته، بالعكس الكثيرون سيعطونه أصواتهم، ليس حبا فيه أو ثقة في برنامجه الإنتخابي ولكن كراهية في الحكومة، الطيب الزين لا يعرفه أحد، وحتى إن سمحوا له بالفوز ولم يقوموا بتزوير النتيجة فلن يستطيع عمل شئ، بل أنه لم يخف أنه قد ينضم للنظام اذا وجد عرضا بمنصب رفيع!

كتب عبد الرحيم على القماش بالخط الأحمر الكبير: انتخبوا إبنكم الفار!

هل اصبحت تساند مرشح الحكومة؟

لا!

لماذا إستبدلت حرف الباء بالفاء؟

نظر الى اللافتة مندهشا: هل فعلت ذلك؟ ضحك ثم قال: أحيانا يكتب الانسان بقلبه!

سألته الى أين يذهب في قيظ الظهيرة، قال دون إهتمام: سأذهب الى الطبيب، حان موعد حقنة الكلوروكوين الرابعة !

من عينيها يتسرّب نفس بريق الحلم الذي يرى نفسه فيه يقود مظاهرة تعبر مثل نهر موسمي قلب المدينة، يمرّغ قلبه في بريق العينين، علاج طبيعي، يعمل بديلا للكلوروكوين، دون أية أعراض جانبية، بعد جرعة الدواء القوي ، يشعر بدوار خفيف، يعطّل لديه حاسة السمع، فيتلاشى العالم من حوله في الصمت، تتلاشى حتى الصور، فلا يرى رجال الشرطة الشعبية الذين خرجوا فجأة مثل شياطين زرقاء من بين أعواد الذرة .

أخذوهما الى القاضي، كان نائما في المنصة في إنتظار أن يرتكب أحدهم جريمة ما، أدانهما بممارسة الزنا، شهد رجال الشرطة الأربعة أنهم ضبطوهما في حالة زنا كامل، قال عبد الرحيم: الآ يوجد طبيب هنا، لم يحدث شئ، أنا نفسي لا زلت مريضا بالملاريا، جلدوهما صباح اليوم التالي في السوق، كان هناك أعداد من المتسوقين والفضوليين وبعض طلبة المدرسة الذين خرجوا للتسكع في فسحة الفطور لأنه لا يوجد فطور في البيت، ورجل جاء من قرية بعيدة للمرة الأولى لرؤية المدينة، وحين رأى فتاة صغيرة تتلوى تحت ضربات الجلّاد، تساءل بعفوية:

ألا توجد حكومة في هذه المدينة؟ فوجئ بأحدهم يقول له: نعم توجد، هل ستذهب معنا لترى الحكومة؟ لم يكن يصدّق أنه يمكن أن يرى الحكومة بالعين المجردة، هي حسب إعتقاده مثل حضور إلهي رحيم، غير محسوس، لا يرى بالعين لكن الحياة تستحيل بدونه، حتى أنه كان يستغرق في الضحك حين يسمع أحدهم يهتف: تعيش الحكومة، كان مجرد بدوي قادم من الصحراء، لا يعرف شيئا عن العولمة، أو ثقب الأوزون، أو خط الإستواء، ورغم ذلك جُرجر أمام نفس القاضي ليواجه

تهمة لم يستطع حتى فهم ماذا تعني: إساءة رمز الدولة! قال للقاضي الغارق في عرقه وأوهام سلطته:

ما معنى رمز؟ قال له القاضي بنفاذ صبر: أنت متهم بالاساءة لرأس الدولة!. ضحك البدوي معتقدا أن الأمر لا يعدو مزاحا حكوميا، قبل أن يستفسر: هل لدولتنا رأس؟ ردد القاضي بضجر: الرأس هو الرئيس، جفل البدوي وتراجع للخلف قليلا وقال صادقا: كيف سأوجه له إساءة إن كنت حتى لا أعرفه!؟

بدأت الطبيعة تتغير من حولنا بمجرد خروج قوة الجيش من المدينة، لحسن الحظ كنا في موسم الجفاف والطرق غير الممهدة خارج المدينة كلها حمراء وجافة، لم نشاهد سوى أعداد قليلة من المواطنين، يبدو أنّ معظمهم يفضّل الابتعاد عن الطرق الرئيسية خوفا من الوقوع في براثن قوات الجيش أو قوّات التمرد .

بدت لي العملية مجرد إستعراض للقوة، عبرنا بجانب عدد من القرى دون أن يبدو أنّ القوة ستتوقف عند إحداها، في النهاية توقفت القوة خارج إحدى القرى فيما يشبه الكمين فقد توقفت العربات في طريق جانبي بين أشجارالقمبيل والهشاب، تفرّق الجنود بعضهم يراقبون الطريق والبعض إنشغلوا بإعداد العشاء، كنت اشعر بجوع شديد، لحسن الحظ أعدّ الجنود الطعام بسرعة من بعض اللحم المجفف والعدس، إفترش الجنود الأرض، كنت أحمل معي بعض أدوات النوم حسب نصيحة النقيب عبدالله، حصير من وبر الجمال أستخدمه للنوم، وثوب خفيف من القطن للوقاية من لسعات البعوض والحشرات الاخرى، إختفى القائد في خيمته الصغيرة التي تسع بالكاد جسده، يبدو انه لم يخلد بعد للنوم، كنت أتحرق شوقا لالقاء نظرة عليه في الداخل، حاولت الاقتراب قليلا من الخيمة لكن المكان كان مكشوفا، خيمة القائد في المنتصف وقد تناثر الجنود من حولها، فجأة سمعنا صوت أقدام تقترب من المكان تأهب بعض الجنود لكنّ الاشارة الصوتية التي أصدرها القادمون جعلت الجنود يجلسون ارضا، فقد كان زملائهم الذين يتولون الحراسة هم القادمون، كانوا يسحبون معهم رجلا طويل القامة، كان الرجل يتحدث بعربية متكسرة نافيا أن يكون من المتمردين وإنه اقترب من المكان فقط اثناء مطاردته

لغزال لصيده، وانه يسكن في قرية تقع مباشرة على بعد بضعة أمتار خلف الغابة، كنت على وشك النوم حين حضر الجنود مع الأسير، أيقظ أحد الجنود القائد، حضر بعد قليل بملابس النوم، نفس الجلباب الضخم الذي كان يرتديه في بيت الضبّاط أثناء حفلات الشراب ولعب الورق، أخذوا الرجل على جانب من المكان وكان واضحا من الاصوات العالية ان القائد يحاول استجوابه، وفهمت من اسئلة القائد انهم يبحثون عن متمردين يختبئون في قرية الرجل نفسه، بدا لي من صوت الرجل وطريقة ردوده انه كان بريئا ولا علاقة له بالتمرد، كان يحكي انه عاد الى البيت بعد يوم طويل خارج البيت ووجد زوجته وطفله جائعين فقرر الخروج مرة اخرى بحثا عن صيد للعشاء. سمعت القائد يصدر ما بدا أمرا لجنوده، سحب الجنود الرجل الذي كان لا يزال يصرخ بصوت عال ويستجدي القائد، بعد قليل سمعت صوت طلقات رصاص، سألت أحد الجنود بجانبي عما حدث، فقال ببساطة: (فسّحوه) كنت سمعت بالكلمة التي يستخدمها العسكر، قلت مصعوقا: قتلوه! لماذا؟

قال الجندي وقد بدا مندهشا من لهجتي الغاضبة: هناك شك أن يكون مع حركة التمرد! معظم الرجال في هذه المنطقة لهم علاقة بالتمرد!

لكن الرجل قال انه لا علاقة له بالتمرد، وهل مجرد الشك يبيح القتل؟

قال الرجل: عند الجيش نعم! إن كان هناك شك قليل أنه سيبلّغ عن وجودنا هنا فلابد من قتله والا ستكون المصيبة أكبر! كما ان الجيش أصلا لا يعتقل الأسرى، يتم استجوابهم ثم قتلهم!

لم استطع النوم حتى الصباح، كلمات الرجل ترنّ في اذني: خرجت لأنّ زوجتى وولدي كانا جائعين! يا للكارثة، هل يمكن أن يحدث هذا في العالم؟

كنت أود التحدث مع القائد صباحا لكن منظر وجهه اللامبالي، صدني عن ذلك، عرفت انه لا فائدة من ذلك، كانوا يمارسون حياتهم بصورة عادية وكأنهم لم يقتلوا انسانا بريئا ربما لا تزال جثته تنزف على خطوات من مكاننا، كنت أود أن اسأل ان كانوا دفنوا جثة الرجل ام تركوها في العراء، ثم فكّرت انه ربما سيكون من

الرحمة ان يعثر ذويه على جثته بدلا أن يبقوا مدى الحياة في إنتظار عودته الى البيت..

كنت اشعر بالذنب، سمعت عن قسوة الجيش وممارساته بحق المدنيين لكن لم أكن اتخيل ان تصل بهم القسوة هذا الحد خاصة واننا في عهد نظام ديمقراطي، إنحسر فيه نفوذ الجيش وكل جريمة ترتكب تجد صدى واسعا في الصحافة ولدى منظمات حقوق الانسان، لكن يبدو أن الجيش لا يأبه لكل ذلك وأنه يعتبر انّ مناطق الحرب تخضع فقط لنفوذه وليتعارك السياسيون هناك في العاصمة.

شعرت بالذنب، حزبنا كان يدبّر في تلك اللحظة انقلابا بالتعاون مع بعض الدوائر في الجيش! حزبنا نفسه ليست لديه رؤية واضحة لإنهاء الحرب، بالنسبة لهم الحرب الدائرة هي حرب تشنها جهات تريد وقف إنتشار عقيدتنا! وصحافة حزبنا تساند الجيش وتدعو لدعمه ليواصل المعركة، بل أن حزبنا قام بالفعل بجمع أموال استخدمت في شراء معدات عسكرية للجيش، كان هناك جدل كثير حول هذه المساعدات في الصحافة، البعض قالوا إنها محاولة لرشوة الجيش وإستمالته في الصراع السياسي.

لم تكن لدي رغبة في مواصلة المهمة إعتبرت أن ما رأيته كان كافيا بالنسبة لي لكتابة التقرير مع مشاهداتي الأخرى في بيت الضبّاط، سألت احد الجنود إن كان بإمكاني العودة الى المدينة مرة أخرى لوحدي؟ لكنه قال مندهشا ان ذلك مستحيل، وشرح لي أن المنطقة بها أعداد كبيرة من المتمردين أو المواطنين المتعاطفين مع حركة التمرد. وأن محاولتي العودة لوحدي ستكون انتحارا، اضافة لصعوبة الحصول على وسيلة مواصلات بسبب الحرب ولأن معظم الطرق والكباري جرى تدميرها، ثم سألني هل تشعر بمرض أو شئ؟ قلت له انا بخير، نظر في وجهي وقال، ما رايته بالأمس نراه نحن يوميا عشرات المرات. ثم إبتسم وقال: لا قيمة للإنسان في الحرب! وفي بلدنا لا قيمه له لا في الحرب ولا في السلام!

سألته متى يجب أن نعود، قال لي انه يبدو إنّ المهمة إستكشافية بناء على معلومات غير مؤكدة بوجود إعداد من المتمردين في القرية التي نعسكر قريبا منها، بعضهم جاء حسب المعلومات التي وردت لحضور حفل زفاف أحد زعماء القبائل، أوضح: الزفاف سيكون غدا ربما نبدأ رحلة العودة غدا مساء أو بعد غد في أبعد تقدير.

قضيت يوما عاديا قمت بإلتقاط بعض الصور، وخرجت مع الجنود الى الغابة المجاورة في رحلة صيد صغيرة عادوا منها بثلاثة غزلان، حاولت الاعتراض حين اطلق أحد الجنود النار على ظبية جاءت لترد الماء مع صغارها. لكن الجندي لم يهتم، بدا مندهشا لاعتراضي، شعرت أنا ايضا أنّ إعتراضي كان لا معنى له، فقد قتلوا قبل ساعات وربما بنفس الشعور بالمتعة، إنسانا بريئا لا ذنب له سوى حظه العاثر الذي جعله يمر بالمكان صدفة، كان الجيش يقود الحرب ضد كل شئ، البشر والحيوانات وحتى الأشجار.

يبدو انّ العملية كانت أكبر من عملية إستكشافية كما توقّع الجندي، فقد وصلت قوة أخرى مساء، كانت أكبر كثيرا من قوتنا يبدو أنها تتبع لحامية أخرى للجيش .

أخبرني أحد الجنود بخبر أثار إنزعاجي الشديد، قال ان هناك إشارة وردت عبر جهاز اللاسلكي تفيد بأنّ حركة التمرد أسرت عددا من المواطنين واللاجئين في هجوم على المدينة، كان خاطفا جدا حتى أن قوة الجيش حين تحركت، كان المتمردون قد غادروا مع أسراهم، قال لي الجندي في الغالب لأنّ العميد يجب أن يعود الى المدينة بسب الحادث فربما يتم تعجيل العملية الحالية أو إلغائها، حين شعر الجندي أنني قلق على المدنيين وأنني تركت زميلي في المدينة طمأنني قائلا: حركة التمرد لا تقتل أسراها! ربما يريدون فقط مقايضتهم ببعض أسراهم لدى الجيش!

كان ذلك إعترافا مدهشا من الجندي، حركة التمرد التي لا تملك دولة أو مؤسسات ثابتة تحتفظ بأسراها، بينما الجيش الحكومي يتخلص من الأسرى بمجرد الحصول على ما لديهم من معلومات.

يا للبؤس حتى الله يكرهه!

كانت أيام العزاء على والدي قد إنقضت، قبل أيام قليلة من وفاته كنت قد تسلّمت رسالة قصيرة تفيد بفصلي من وظيفتي كمعلم بمدرسة القرية، لم تذكر الرسالة سببا واضحا للإستغناء عن خدماتي وإكتفت بعبارة الصالح العام، كان القرار متوقعا بعد أن رفضت كل محاولات إلحاقي بوظيفة في جهاز الأمن الوطني، وأن أقوم بالتوقيع على تقرير مخالف للتقرير الذي كنت قد كتبته قبل سنوات حين أوفدني الحزب الذي كنت عضوا فيه، لمراقبة الرجل الذي كان مرشحا لقيادة الانقلاب الذي كان حزبنا يعد لتدبيره، كان واضحا من عرض الوظيفة أنها محاولة لإسكاتي لضمان عدم تسرب أية معلومة عن التقرير الذي كنت قد كتبته، ومحاولة لإعادة نشاطي في الحزب الذي كنت قد تركته بسبب تجاهل ذلك التقرير.

كنت أحاول تأجيل الخطوة الجديدة لأنني لم أكن أعرف تحديدا ما الذي يجب أن أفعل، ولأنّ فقدان الوظيفة كان يعني للكثيرين التفكير في خيار الهجرة، كانت الفكرة تبدو بالنسبة لي مرعبة، فترة الدراسة قبل سنوات في الخرطوم أقنعتني بأن الحياة في القرية لا يمكن إستبدالها، في المدينة يسابقك الزمن، تركض في كل إتجاه، دون أن تظفر بشئ، فكيف سيكون الحال إن تركت الوطن كله؟ كما إنه لا يمكنني إتخاذ قرار الهجرة لوحدي: هناك والدتي وشقيقتي، وهناك سميرة، صاحبة الوجه الذي يتبعه هديل القمري، كما كنت أطلق عليها، كنت أنتبه أحيانا الى أنّ إطلاقي هذا الاسم عليها لم يكن بسبب غناء القمري في ساعات الضحى الذي كنت أشعر به كإشارة لرؤية وجه سميرة، بل بدافع شعور خفي بالذنب، كأنني كنت أريد أن تحيا أبيبا ويعود معها من الموت صديقي سراج، من خلال إعادة رسم صورة سميرة لتحاكي نفس صورة أبيبا وزمانها.

أقضي النهار في صحبة عجوز يعيش في مزرعة صغيرة في قلب الصحراء، قريبا من قريتنا، ظلت العودة للعيش فيها حلما كان يراوده طوال عقود حتى إنسربت منه الذاكرة. كان يمت بصلة قرابة لوالدي، وربطت بينهما في فترة الشباب صداقة قوية، ثم باعدت بينهما الأيام بسبب إضطراره للإنتقال إلى المدينة، تعلّمت منه أشياء كثيرة أولها كيفية تحديد موقعي في الصحراء عن طريق النجوم وكيف يمكنني تقوية ذاكرتي بقوة الملاحظة التي تتيح لي حفظ أية علامات مميزة لأية مكان أزوره، كما علّمني كيفية التعرف على آثار أقدام الناس وكيفية تمييزها، كان ذلك محور حياته طوال سنوات عمله الطويلة، فقد عمل لعقود مع الشرطة في إقتفاء آثار المجرمين، وبفضل ذكائه وقوة ملاحظته أمكن حل عدد كبير من جرائم السرقات، حتى ان إسمه كان يثير الرعب في قلوب أكثر اللصوص ذكاء، مما جعل عددا كبيرا من اللصوص يتركون المنطقة للعيش في مناطق بعيدة أكثر أمنا، فيما ترك البقية السرقة وإحترفوا اعمالا بسيطة مؤقتة أملا في أن تخلصهم ضربة عزرائيلية من العجوز الذي يتشمم آثار الاقدام على الارض حتى بعد أن تمسحها الرياح، وحين يتأخر الموت، يقول أحد اللصوص التائبين مؤقتا: يا للبؤس حتى الله يكرهه! لا أحد يريده، يوم موته سترتعد عظام الموتى من اللصوص! ثم

يتحسّر اللص المسكين على سنوات عمره التي تضيع في أعمال شريفة اجبارية، أعمال شاقة مؤبدة، يعمل بجانب المعدية التي تربط بين ضفتي نهر النيل، يقوم بإفراغ العربات من البضائع التي يشتريها بعض تجار التجزئة من المدينة، عبوات الصابون وزيت الطعام، جوّالات السكر وصناديق الفواكه، لعب الأطفال الرخيصة وملابس النساء الملونة، ليس لديه أجر ثابت، يتوقف أجره على كرم هؤلاء التجار الصغار الفقراء، معظمهم حصلوا على هذه البضائع دون أن يدفعوا ثمنها، وعليهم بيعها بسرعة لدفع ثمنها والحصول على بضائع أخرى، بعضهم كرماء يدعونه بعد أن يفرغ من إنزال البضائع ووضعها قريبا من النهر في إنتظار وصول المعدية من الشاطئ الآخر، يدعونه لشراب كوب من الشاي، أو لتناول قطعة خبز محشوة بقطع لحم صغيرة، يشعر ببعض الرضا حين تمتلئ بطنه التي لا تكف عن طلب الطعام، ربما بسبب العمل الشاق الذي يمارسه، يشعر بالشوق للأيام التي كان يمارس فيها اللصوصية بإحتراف وفن، حتى أنه كان يعزف على الربابة أثناء ممارسة عمله، مشيعا بهجة إجبارية في مكان عمله، و ضامنا لمن يقوم بسرقتهم نوما هانئا مع الغطاء الموسيقي، يقول هذه من محاسن شراب الخمور، حين يشرب الانسان يشعر بمتعة إضافية تجعل إستمتاعه بالغناء مضاعفا، كما تجعله كريما قد يشعر بحركة لص ما لكنه يواصل نومه متمنيا للص حظا سعيدا، لا يحتكر الشخص المخمور مباهج الحياة لنفسه، ينثرها على العالم، المشكلة فقط أن أمثاله لا يملكون الكثير وإلا كنا تقاعدنا عن العمل وعشنا على كرم السكارى، أحيانا يوقعنا الحظ العاثر في بيت شخص بخيل، قال لي زميل مرة ونحن نبحث عن شئ يؤكل بعد أن فقدنا الأمل في العثور على شئ يمكن ان نأخذه معنا، لقد أخطأنا الطريق الى بيت درويش زاهد في الحياة فيما يبدو، لكننا لم نجد دليلا على التقوى او المحبة، لم نجد ولا حتى مسبحة او حصير لأداء الصلاة، كل الاشياء في البيت تبدو بدون فائدة كأنها ظهرت في المكان فقط بفضل قوة مجهولة، برج الحمام كان مجرد وكر مهجور، خزانة الأغذية وجدنا فيها أحذية قديمة، قررنا سرقة الأحذية لكننا إكتشفنا أن الأحذية لا يوجد بينها زوج واحد، كل فردة حذاء مختلفة عن الأخرى! حفرنا الأرض بحثا عن مال مخبوء فلم نجد سوى بقايا

عظام طيور وبعض قطع حديد صدئة. جرّبنا استخدام الصدمة الغنائية التي يمكن أن تحرّك حجارة قلب صاحب البيت فتصدر عنه إشارة حب مؤقتة تشي بمكامن الثروة. لكنه لبث صامدا كأنه قد من حجر، خشيت أن يستيقظ على صوت غنائنا ، لكن زميلي طمأنني: حين يجد البخيل خمرا مجانية يسرف في الشراب، ويكون فاقدا للوعي لفترة طويلة، لو أننا حضرنا بفرقة موسيقية كاملة ما تحرّك خطوة واحدة، يقتصد في كل شئ حتى في إستخدام أذنيه. ثم لاحظ زميلي بيأس: أمثاله لا يحسنون الوضوء إلا إذا هطلت الامطار!

لم يستعد اللصوص حياتهم السابقة الا بعد أن بدأ العجوز بسبب تقدم السن في الخلط بين آثار الأقدام التي يراها أمامه، وبسبب خرفه واجه بعض الأبرياء تهما بالسرقة، إختلطت كل آثار الأشياء في ذاكرته، فلم يعد قادرا على التمييز بينها، لكن ضوءا توهّج في عتمة الذاكرة، فكان يستعيدها مساء، يذرع القرية محاولا إستعادة وهج ذاكرته ومقدراته على إقتفاء الاثر بتنشيط ذاكرته من جديد بإعادة تلقينها بتفاصيل العالم بصبر وقسوة. يعيد وضع النجوم بأسمائها في ذاكرته، ويقوم بتثبيت كل نجم في مكانه بواسطة مسامير صغيرة سوداء يعثر عليها في ذاكرته، حتى لا تختلط النجوم في رأسه، فقد لاحظ أنه حين يستطيع التعرف على النجوم يمكنه التحكم في إستعادة أجزاء من ذاكرته تدريجيا.

المشكلة أن إستعادته للذاكرة بدأت بجوانب فضائحية، فحين يستيقظ فجأة في القيلولة على صوت شخص ما يزور أولاده، كان ينادي متسائلا عن الزائر، حين يسمع إسمه: عبد الكريم ....، يقول : نعم أعرفه، والدته كانت عاهرة، وكانت تسرق أحيانا لقد تعرفت عليها حين سرقت مرة حذاء نسائيا من متجر في سوق السبت حين خرج صاحبه لأداء الصلاة. يصعق أبنائه ويلوذ الضيف بالفرار أملا في أن يوقف رحيله سيل إنهمار الفضائح.

من معكم؟ ولأن الزائر كان إبنا لمسئول حكومي معروف، يقول أحد أبنائه بعد تردد، معنا صديقنا.....

نعم أعرفه قال، ألم يكن والده يؤمنا قبل سنوات في صلاة الجمعة ثم أصبح مسئولا كبيرا، لا بد إنه الآن يسرق دون خوف بعد أن أصبح رجلا مهما، كان له منظر نبي بالذقن وغرة الصلاة ثم إكتشفت مرة إنه أقدم على سرقة مال من إحدى المؤسسات الخيرية التي كان يملك مفتاحها. لم يكن آنذاك قد أصبح مسئولا كبيرا بعد، كانت ذقنه صغيرة، وكلما تحسنت أحواله كانت ذقنه تكبر حتى شارفت الوصول للأرض، بواسطة بعض النافذين خرج من تلك القضية مثل الشعرة من العجين، في السابق كان اللصوص تتقهقر بهم الاحوال حين يضبطون وقد يضطرون للتوبة او الرحيل، الآن تتحسن أحوالك حين تسرق بل وتصبح مسئولا كبيرا! .ويلوذ إبن المسئول الكبير بالفرار .

من معكم يا أولاد؟ إنه فلان، أعرفه كانت والدته... ويلوذ الجميع بالفرار لأن الاستماع لتخاريفه يوقع الجميع، حتى الأبرياء، تحت طائلة المسئولية..

في المساء حين تمتلئ صفحة السماء بالنجوم، يعيد ترتيبها في ذاكرته، وبعد التمرين الثاني يبدأ في إستعادة وقائع ذاكرته القديمة، يبدو بها سعيدا مثل طفل فرح بإستعادة إحدى لعبه المفقودة. تحكي له أم أولاده عن المشاكل التي يثيرها نهارا، يشعر بالندم قليلا لكنه ينسى كل ذلك في غمار فرحة إستعادة الذاكرة المسائية.

قال إبنه الاكبر، توقف اللصوص عن الرحيل بل عاد من هاجر منهم، الان بدأ رحيل بعض مسئولي الحكومة الذين راجت فضائحهم النهارية من نزيف ذاكرة قصّاص الأثر. ضحك حين سمع بذلك مساء وقال: إكتشفنا إننا أضعنا عمرنا في مطاردة مساكين سرق أكثرهم طموحا نصف جوال قمح، اللصوص الحقيقيون كانوا يدعوننا كذبا للزهد في الدنيا.

الزيارة التالية كانت لرجال الشرطة السرية الذين إحتجزوه لعدة أيام للتحقيق معه، كاد يهلك من الضرب والتجويع، بعد أشهر أطلقوا سراحه بعد أن شارف على الموت. لدى خروجه اتخذ قرارا مسائيا: سيعود الى بيته، لم يفهم أبناؤه في البداية

الإشارة وإعتبروها إمتدادا لتخاريفه النهارية، لكن زوجته أوضحت: سيعود الى مزرعته المهجورة في الصحراء.

قبل أن يغريه أحد شذاذ الآفاق لينتقل للعيش في المدينة، كانت الصحراء هي بيته، يتحرك مع قبيلته صيفا وشتاء في رحلات البحث عن الكلأ، وقبل سنوات طويلة حطت القبيلة رحالها في الشتاء في منطقة سهلية تحيط بها كثبان رملية عالية، كانت المنطقة غنية بالحشائش رغم أن أمطار خريف ذلك العام كانت أقل كثيرا من معدلها السنوي، حطت القبيلة رحالها لعدة أشهر حتى أقفرت المنطقة، وحين حزموا متاعهم لمواصلة التجوال بحثا عن الكلأ، أبدى الطاهر رغبته في أن يستقر بالمكان، قال لهم ستجدونني في إنتظاركم حين تعودون في العام القادم، قام ببيع جزء من ثروته الحيوانية ليتمكن من إعمار المكان، بدأ بزراعة أشجار النخيل، وكما توقع نمت الأشجار بسرعة بسبب قرب المياة الجوفية، ثم حفر بئرا وإستعان بخبير قام مع عماله بالحفر عميقا حتى تدفقت المياه الجوفية من أعماق الأرض البعيدة، ثم قاموا بتنظيف عين الماء بإستخدام آلة الشادوف، إستغرق العمل وقتا أطول، عن طريق المواسير التي يحركها الشادوف صعودا وهبوطا، كان يتحتم إحداث ثقب في الطبقة الحجرية لضمان تدفق المياه من عين الماء، لأن المياه الجوفية السطحية سرعان ما تنفد، العم الطاهر كان يتركهم كل يوم ويخرج مبكرا للصيد، يستخدم بندقية رمنجتون قديمة، حصل على ترخيصها أيام عمله مع الشرطة، لديه مخبأ جاهز قريب من عين ماء، صنعه من الصخور وبعض فروع أشجار الطرفاء والسنط التي تنمو متفرقة في المنطقة، حين عادت قبيلة البدو مرة أخرى بعد عامين، وجدوه قام بتعمير المكان وكان مشغولا بعمل سور لمزرعته من الصخور وجذوع الأشجار وأغصان السنط الشوكية، في الرحلة الثانية بقي والدي معه لبعض الوقت قبل أن يشتري قطعة أرض قريبة من نهر النيل ويبني بيتا في القرية، ثم تزوج الاثنان من أهل القرية .

إعترض أبنائه في البداية على فكرة عودته للعيش في الصحراء، خوفا من توهانه هناك حين تضعف ذاكرته نهارا، قال إبنه الأكبر:حين تهب العاصفة يفقد حتى

أشد الناس مقدرة على تتبع الأثر القدرة على تحديد مكانه، لكنه وبإشارة من يده حسم النقاش حول قراره، قال مشيرا للمدينة النائمة فوق وميض المغيب المتناثر فوق كثبان الرمال حيث يتعالى صخب وصول قطار أو باخرة نيلية، ينسرب ببطء الى ذاكرته، يثير أمواج الحنين فوق بحر لحظة تغييره من ذاكرة النهار الى ذاكرة الليل المتخمة: الصحراء هنا !

إعترف لي في المرة الاولى التي أراه فيها وأستمع لقصته أنه لم يكن يفقد ذاكرته أثناء النهار بل يستعيدها.

أشار لي بالسفر، قال لم يعد لك الكثير هنا، والدك تعب لكي يعلمك وأنت لم ترغب يوما في العمل كمزارع فماذا ستفعل؟

قلت دون تفكير: سأفقد أشياء كثيرة حين أسافر.

كان يعد طعام الغداء، أشار للمغرفة الخشبية التي يستعملها في تحريك عصيدة الدخن على النار وقال: بعض العجين يعلق في المغرفة أثناء التحريك على النار لكنه لا يقلل من كمية الطعام.

حكى لي قصة رجل كان مفروضا أن يصبح حاكما، لكن عمه إنقلب عليه وحاول قتله ليورّث إبنه الحكم رغم أن العم كان قد تولى الحكم بناء على إتفاق يقوم بموجبه بتوريث إبن شقيقه. هرب الإبن بحياته وسافر جنوبا بالناقة الوحيدة التي إستطاع الحصول عليها من ممتلكات والده، في الطريق توقف لقضاء الليل في مسيد في منطقة على حافة الصحراء قريبة من نهر النيل، كان للرجل الذي يسكن في جوار المسيد ويقوم بخدمة الضيوف العابرين وطلبة القرآن بنت وحيدة تتولى مع والدها خدمة الغرباء. أعجب بها إبن الملك لكن لم يكن بيده شئ لعمله، فواصل سفره جنوبا وحين وجد أنه ابتعد بما يكفي لكي يكون بعيدا عن مؤامرات عمه، قرر أن يستقر ويبحث عن عمل، جرّب كل شئ دون فائدة، حاول العمل بالتجارة فسافر الى مناطق النيل الابيض لجمع الصمغ وشحنه الى سواكن لكن تجارته فشلت، حاول الزراعة المطرية، لكن الأمطار كانت تهطل في كل مكان من حوله، عدا

في مزرعته، وفي النهاية زار أحد شيوخ الطرق الصوفية فنصحه أن يعود من حيث أتى، قال له، أرى أبقار بلادكم كلها تحلب في فمك.

عاد من رحلته وقبل ان يصل الى قريته تزوج من فتاة المسيد وبقي فترة من الزمان معهم يفلح أرض صهره، ثم سمع بوفاة عمه وأن أهل المنطقة يريدون عودته فعاد ليتوّج ملكا.

لقد كان قدره ألا يجد خيرا في سفره لكنه تعلم منه كثيرا، وعثر على الزوجة الصالحة في أثناء سفره، كما أبعد نفسه عن مؤامرات عمه فنجا بحياته.

التقرير

لم يكن امامي من خيار سوى البقاء لحين انتهاء العملية رغم قلقي الشديد على سراج، اليوم التالي كان عاديا، إنشغل الجنود بإعداد الطعام، عدد الجنود اصبح كبيرا جدا بعد وصول القوة الاضافية، رغم ذلك لم يكن هناك أية مؤشر على أن العملية ستتم في نفس ذلك اليوم، خرج بعض الجنود للصيد وإنشغل العض بإعداد طعام العشاء، لكن ما أن ارخى المساء سدوله حتى صدرت الأوامر للقوة بالاستعداد للتحرُك. أخذت مكاني في عربة القائد ومعي الكاميرا، كان واضحا أنّ هناك من يوجّه القوة فقد كانت هناك معلومات تصل تباعا عن طريق جهاز اللاسلكي، فهمت منها أن القوة ستتجه لمحاصرة البيت الذي يشهد حفل زواج للقبض على المتمردين الذين سيحضرون حفل الزفاف.

كانت السيارات تسير ببطء مستخدمة أنوارا خافتة حتى لا تلفت الأنظار، بعد مسيرة إستغرقت حوالي الساعة بدأت القوة تأخذ أماكنها حول بيت كبير تحيط به أشجار كثيفة، لم أتمكن من الرؤية جيدا لكنني فهمت أن البيت ملئ بأعداد كبيرة من الناس الذين جاءوا لحضور حفل الزفاف، بأوامر من العميد حسن عبد الرحمن تقدّم عدد من الجنود الى البيت، لتفتيش المدعوين بحثا عن السلاح والمتمردين،

سمعنا بعد قليل صوت إطلاق نار لم يستمر طويلا. عاد الجنود يسحبون أحد زملائهم الذي أُصيب في إطلاق النار، كنت أعتقد أنّ العميد سيقوم بإرسال وفد للتفاوض مع أصحاب العرس لتسليم المتمردين، كنت أرقب محاولات الجنود لإسعاف زميلهم الجريح الذي وضعوه في إحدى العربات العسكرية، حين لاحظت أنّ الجنود نزلوا جميعا من العربات العسكرية وحاصروا المكان، لم يكن هناك ولا حتى إنذار لمن هم بالداخل، لاخراج النساء والأطفال على الأقل قبل بدء المعركة، أصدر العميد الأوامر وإنهال الرصاص كالمطر على المكان.

كان هناك من يحاولون تسلق الجدران للهرب لكن الرصاص إصطادهم جميعا، سمعت صوت بكاء أطفال وصراخ نسوة، توقعت أن تتوقف المعركة حين تعالى صوت بكاء الأطفال لكنّ ذلك لم يحدث، بل زادت ضراوة الرصاص كأنهم كانوا يريدون إسكات تلك الأصوات بأسرع فرصة حتى لا تثير فيهم أية مشاعر خوف أو ندم أو شعور بالذنب، تنبّهت للكاميرا في يدي وبدأت أحاول إلتقاط بعض الصور، لم يكن الضوء كافيا في البداية وإستخدام ضوء الفلاش لم يكن مجديا لأنني لم أكن قريبا من المكان بما يكفي، لكن تزايد إشتعال النيران سمح لي بإلتقاط بعض الصور يظهر فيها بعض الاشخاص الذين يحاولون تسلق الجدار للنجاة بحياتهم، ويظهر البيت كتلة من اللهب، بعد قليل صدر أمر بإيقاف إطلاق النار، كانت النيران قد اشتعلت في البيت، لا أدري هل اشعلها الجنود أم ربما كانت من النيران التي يتم عليها إعداد عشاء المدعوين، تصاعدت ألسنة النار والدخان، كان صعبا تخيل وجود أية ناجين، لم تكن معركة كما إعتقدت، كانت مجزرة، لم يرد أحد من داخل البيت على إطلاق النار الذي بادر به الجنود.

صدرت الأوامر للقوة بالإنسحاب، عادت العربات كلها للمعسكر المؤقت، كنت لا أزال تحت تأثير صدمة ما حدث، خيّل لي في البداية أنه مجرد حلم، لن ألبث أن افيق منه، فلم أعد أعي ما يحدث حولي، بيت عرس، أي بيت للفرح، بيت لحياة جديدة وأطفال جدد، هل يمكن أن يهاجم إنسان عادي فرحا ويحيله كله الى مآتم وليس مأتما واحدا؟

يبدو أننا لم نتوقف في المعسكر كثيرا، جمعوا اشيائهم التي تركوها هناك وبدأنا رحلة العودة للمدينة فيما غادر جنود الفرقة الاخرى الى معسكرهم.

يبدو أن الكوارث التي بدأت مع معرفتي بهذا الرجل لن تتوقف، فمجرد وصولي للفندق عرفت أن سراج ضمن المجموعة التي إختطفتها حركة التمرد.

قمت بتغيير ملابسي وسارعت بالذهاب الى بيت الضباط، لحسن الحظ وجدت النقيب عبدالله، طمأنني ان كل شئ سينتهي على خير. وسيفرج عن الأسرى، مطالب المتمردين ليست صعبة، يريدون فقط إطلاق سراح أحد قادتهم، كان قد وقع قبل أيام في أسر الجيش.

شعرت ببعض الراحة لكلام النقيب عبدالله رغم أنّ القلق كان ينهشني بشدة على سراج، لولا إلحاحي أن يصحبني في هذه الرحلة لكان الآن يمارس حياته العادية هناك في العاصمة بعيدا عن أية مخاطر، سألت النقيب إن كان ممكنا أن ارافق المجموعة التي تتولى التفاوض.

تردد قليلا لكنه وعدني أن يحاول، تضاعف خوفي حين عرفت منه أن العميد حسن سيتولى الآن عملية التفاوض لأن العقيد عبد الفضيل الذي كان يتولى العملية إستدعي فجأة للسفر للعاصمة، صرّحت بمخاوفي للنقيب عبدالله: أخشى أن العميد حسن قد يلجأ للعنف لتخليص الرهائن، إبتسم النقيب عبدالله وقال: رفعنا طلبا للقيادة للموافقة على إطلاق سراح القائد المتمرد السير، ونحن في إنتظار ردهم، لا أتوقع أن ترفض قيادة الجيش ذلك، قد يماطلون قليلا في الرد أملا في أن تحل المشكلة بدون الاضطرار لإطلاق سراح الأسير الذي لا يزال يخضع حسب علمي للإستجواب، لكن في كل الأحوال أعتقد أنّ أية عملية لتخليص الاسرى يجب أن تحصل على موافقة القيادة.

زاد كلامه من قلقي، لو كنت أملك أية سلطة لإستبعدت الرجل من هذه المهمة، كنت متأكدا أنّ أية واحد من زملائه الضباط بما فيهم النقيب عبدالله يمكنه إدارة الأزمة بصورة أفضل تضمن تحرير الرهائن دون مشاكل.

لم يكن أمامي سوى الانتظار، عدت الى الفندق، حاولت كسبا للوقت أن أواصل في كتابة التقرير حتى يمكننا السفر بمجرد إطلاق سراح سراج. لم أتمكن في البداية، وجدت سراج قد حزم حقيبته، هل كان ينوي تنفيذ كلامه والمغادرة للزواج من فتاته والاستقرار في المدينة؟ خرجت للمقهي في الخارج، شربت كوبا من القهوة، وبدأت أكتب نقاط ملاحظاتي على عملية الجيش التي رافقتها، المواطن الذي قتل بدم بارد لمجرد الاشتباه بعلاقته بالتمرد.

بيت العرس الذي تحول إلى مأتم للمنطقة كلها، سلوكه داخل بيت الضباط، أشرت أيضا للواقعة التي سمعتها من أحد الجنود الذي كان مرافقا للعميد حسن في رحلة صيد، رفع مواطن يده حين لمح السيارة القادمة دون أن يعلم أنها سيارة ضابط في الجيش أملا في أن يتوقف له السائق، بدلا من ذلك قام العميد بدهس الرجل وقتله!

وجدت أنّ القلق على سراج كان يعطيني قوة إضافية لأمضي قدما في كتابة تقريري، كنت مستغرقا تماما حتى إنفصلت من العالم من حولي، حتى نبّهني نادل المقهى، كانوا يقومون بنقل المقاعد والمناضد من خارج المقهى الى داخله بسبب زخة مطر مفاجئة كانت تنبئ ببدء خريف مبكر.

ساعدت النادل على نقل الطاولة الى الداخل، أحضر لي كوبا من الشاي، كان هناك عدد من اللاجئين يتحدثون في الداخل بلغتهم، شعرت أنهم كانوا يتحدثون حول واقعة الاسرى بيد حركة التمرد، كنت قد سمعت أن بعض اللاجئين ضمن الأسرى، أرخيت أذني حين سمعتهم يرددون بعض السماء، خفق قلبي بشدة حين سمعت إسم: أبيا! يبدو أنها وقعت مع سراج في أسر حركة التمرد..

كانت تباشير الفجر تطل من الأفق، توقّف المطر أخيرا، لكنّ رائحة التراب المبلول ورائحة نوّار أشجار الهشاب في الغابة القريبة لا تزال تعبق في الجو، شعرت بالنعاس، لكنني خشيت إن ذهبت الى الغرفة ألا أستطيع النوم مجرد أن أجد أشياء سراج ورائحته في الغرفة، كنت أنتظر شروق الشمس لأعود للغرفة، الظلام والقلق على سراج كانا أكبر من مقدرتي على الإحتمال. سألني النادل إن كنت أرغب في شراب شئ، طلبت كوبا من القهوة. بدا لي مذاق البن غريبا، رأيت من خلاله صور ذكريات قريتنا البعيدة. رأيت وجه جارتنا الطيبة ست البنات، كانت تأتي لزيارتنا أحيانا تحمل معها أدوات صناعة البن، تحتفل والدتي بحضورها، وتحضر لها حبوب البن وأدوات صناعة القهوة. تقوم أولا بقلي البن على نار جريد النخيل، ثم تطحن الحبوب السوداء في مطحن صغير من الخشب، ثم تضع مسحوق القهوة وحبوب الهيل مع الماء في إناء الصفيح الذي إشترته أمي من الغجر، وحتى تغلي القهوة تخرج قطع الودع وتبدأ في قراءة الطالع.

مع أول شعاع للشمس إخترق الهواء المشحون برائحة المطر، وضعت آخر كلمتين في تقريري: لا يصلح

نظرت الى أعلى فرأيت السماء مرصعة بجواهر النجوم، غبار الضوء كان يشبه خيوط شبكة عملاقة سقطت فيها النجوم، داهمني شعور غريب: أن السماء قد تسقط في أية لحظة فوق رؤوسنا، كنا نجلس أنا وعبد الرحيم بجانب نهر النيل، خرجنا نلتمس بعض الهدوء من ضوضاء المدينة، أصر عبد الرحيم أن يحمل معه زجاجة عرق التمر، رغم تحذيري له أن عيون السلطة لا تزال تترصدنا، قال دون إكتراث وكأنه يقرأ شيئا في صفحة السماء: لن يحدث شئ الليلة، هم مشغولون بالتزوير، بعد أن شربنا قليلا إستلقينا على رمال الشاطئ الذي تفوح منه رائحة السمك الميت، وأزهار الصفصاف، صوت الموج يغري بالإبحار في عوالم

أخرى، دون أن أشعر وضعت يدي فوق رأسي كساتر لحمايتها من النجوم المتهاوية. وجدت عبد الرحيم يفعل الشئ نفسه.

نصحته بالسفر، قلت له، قد يحاول أهل الفتاة الإنتقام منك، لم يكن كعادته يفكر في نفسه. قال، أخشى أن يصيب سناء مكروه، لا زال هناك من يفكر في دفن الفضيحة في الدم، لا حل سوى أن أتقدم طالبا الزواج منها! تذكرت سميرة، لا بد أنها مشغولة الان بلقيط محصول الويكة، كنت قد حسمت أمري وقلت لها: سنتزوج بعد موسم الشتاء، في أول مرة أقترح فيها هذا الموعد، عدت بعد خمس سنوات، حين أقف أمامها، لا أتعرف على نفسي في مرآة إنتظارها، أرى أبيبا تقطع شارع غناء القمري، تبدو لي كأنها تقطع النهار في إنتظار شخص آخر، لم تصل بعد إشارة تقطع بموعد وصوله، يشارك العالم كله في مؤامرة طمر صورته في التفاصيل، في خماسين الصيف، في رياحين ابريل النائمة في أقبية النسيان، في غناء الهدهد في أمشير، حين يتنبأ بقرب هبوب العاصفة.

إنتبهت على صوت ضابط الأمن:

تريد إذن القيام بثورة مسلحة ضد السلطة الشرعية!

كان قد وصلني إستدعاء عن طريق اللجنة الشعبية في الحي، حين وصلت مكاتب جهاز الأمن في المدينة، سلّمت ورقة الاستدعاء المكتوبة بخط ردئ لشخص وجدته يجلس في غرفة الاستقبال وفي يده صحيفة رياضية يقرأها بإهتمام بدا لي مصطنعا، ترك يدي الممدودة بالورقة لبضع دقائق متظاهرا بالانهماك في قراءة صحيفته ثم رفع نظره فجأة وسألني بجفاء ماذا أريد، إكتفيت بهز الورقة الممدودة له، نظر في وجهي كأنه يريد تفسيرا للورقة التي لا زلت أمسكها بيدي، ثم مد يده بتكاسل وتسلّم الورقة، نظر فيها بتكاسل ثم أشار لي لأجلس، جلست، كان الزمن يمر بطيئا، تفوح من المكان رائحة تشبه رائحة السم الذي يستخدم لجريد النخيل المستخدم في السقوف، لقتل حشرة الأرضة التي تلتهم كل شئ. لابد أنهم قامو بتجديد السقف، بدت لي الرائحة متناغمة بصورة ما مع ضجيج الصبية

العابرين في شارع الاسفلت المهترئ في الخارج، الذائب في حمارة القيظ، مروحة السقف القديمة التي تدور ببطء مصدرة صريرا معدنيا، تبدو كأنها تحرّك أبخرة القيظ فتصبح الغرفة مثل مرجل، شعرت بدوار خفيف بسبب الحرارة الشديدة، كما شعرت بالعطش بعد فترة إنتظار طويلة، طلبت من الرجل الذي كان لا يزال يطالع صحيفته كوب ماء، غادر مقعده بعد فترة واختفى قليلا قبل ان يعود لي بكوب ماء لم يكن سوى علبة صفيح كانت تستخدم لحفظ مربى البرتقال، لم يرو الماء الذي كان به طعم ملح خفيف من ظمأي لكنني آثرت أن انتظر، نظرت في ساعتي، إنصرم النهار، خفتت حركة الصبية الذين يبدو أنهم كانوا يلعبون الكرة في باحة قريبة، سألت الرجل أن كان إنتظاري سيطول، أخبرني أنه أبلغهم في الداخل أنني موجود وقال أحدهم أنه سيحضر لمقابلتي لكنه لا يعرف لماذا لم يحضر ، ثم طلب مني الجلوس ريثما يعود من الداخل، عاد بعد برهة ليقول لي أن هناك خطأ ما وأنني لست مطلوبا للحضور الى الجهاز، سألته هل بإمكاني الذهاب الآن؟ أشار لي بإشارة فهمت منها أنه يجب عليّ أن أفعل ما أريد، غادرت المكان، كان الليل قد أرخى سدوله، حين قطعت طريقي في شارع الاسفلت الخالي تقريبا الا من شخص لمحته من على البعد يحمل شيئا فوق رأسه، عرفت أنني لن أجد في الغالب سيارة تحملني الى القرية بعد أن أعبر نهر النيل، فكرت في قضاء الليلة في المدينة، تذكرت على الفور زميل دراسة يسكن في المدينة منذ سنوات، لقد عشنا معا لسنوات فترة الدراسة ثم عملنا معا لفترة قصيرة، ثم حافظنا على مراسلات بريدية دامت لفترة، قبل أن تنقطع بمضي السنوات..

بعد يومين من عودتي الى القرية تلقيت إستدعاء آخر من جهاز الأمن، أحضره لي هذه المرة أحد رجال الشرطة الشعبية قلت له هناك خطأ ما لقد تلقيت استدعاء قبل أيام وحين ذهبت في الموعد المطلوب أخبروني أنني غير مطلوب، هزّ الشرطي كتفيه وقال ان الاستدعاء واضح وعليه إسمك، ولا مجال لأية خطأ، ونصحنى بالذهاب في الموعد المطلوب، تكرّر نفس المشهد السابق ولبثت في غرفة الإنتظار ذائبا من الحر عدة ساعات قبل ان يخبرني احدهم بعد أن ارخى المساء سدوله إنه لم يجد إسمي في أي مكان، في المرة الثالثة تسلّمت الاستدعاء

من شخص غريب نصحنى أيضا بالذهاب في الوقت المحدد، قرّرت ألا أذهب هذه المرة.

مرّ اليوم الأول عاديا، ذهبت الى مزرعة العم الطاهر، أخبرني بموافقته على أن اقوم بالزراعة معه مادمت مصرا على عدم السفر، فرحت بقراره وأبلغته أنني لن أترك عملي على كل حال فقد التقيت قبل أيام رجلا مسنا عمل ايضا في شبابه معلّما، يعيش منذ سنوات طويلة خارج الوطن واخبرني إنه يرغب في العودة للعيش في القرية ويفكر في بناء مدرسة خيرية لخدمة أبناء الاسر الفقيرة الذين لا يستطيعون إرسال أبنائهم للمدارس بسبب مصروفاتها العالية. وعرض علي العمل معه، في اليوم الثاني لم يحدث ايضا أية شئ، أحضرت نصف زجاجة عرق من سوق السبت، شربت قليلا ثم نمت، كنت أخلد للنوم في العادة في الفناء المواجه لمدخل البيت تاركا والدتي وأختى تنامان في الفناء الخلفي، سمعت أصواتا غير عادية من حولي، فتحت عيني بصعوبة معتقدا أنني أحلم، كانت هناك أشباح تتحرك من حول فراشي، ثم بدأت الصور تتضح في ضوء النجوم، قفزت واقفا فزعا دون أن أتبين طبيعة الأشباح التي تحيط بي حتى أشعل أحدهم مصباحا يدويا، كانو من الغرباء لكنني عرفت أنهم من رجال الأمن وأعتقدت انهم جاءوا بسبب عدم حضوري بعد الاستدعاء الذي أرسلوه لي..

الرجل الخامس

وضع الرجل الخامس يديه حول رأسه وضغط عليه كأنه يحاول دفع الوقائع التائهة في ذاكرته للخروج، ثم قال: حدثت أشياء غريبة، لا أعرف حقا ان كنت أتذكرها أم أتذكر شيئا لم يحدث لي، ما أذكره أنني كنت نائما تحت شجرة مانجو، كانت ثمارها ضخمة، لدرجة أنني كنت أضع رأسي أثناء النوم فوق إحدى ثمار المانجو، وفجأة وجدت نفسي بجانب النهر، بسبب حرارة الجو إقترح أحدهم أن نتسلى بعبور النهر الى الجانب الآخر، وفجأة ونحن في منتصف المسافة الى الشاطئ الآخر سمعنا صراخ أشخاص يدعوننا للعودة بسرعة لأن أحدهم إشتم رائحة تمساح في النهر، كنا عشرة رجال وحتى لا يتعرض لنا التمساح سبحنا في صف واحد متراص نمسك بأيدي بعضنا ونسبح بيد واحدة في ضربة واحدة قوية متناغمة، كنا جميعا نغني بأصوات متنافرة مثل تلاوة أطفال الخلوة، ورغم رهبة الجو الا أننا إكتشفنا أن أحدنا كان غريبا عنا، حين إرتفع صوته بالغناء إكتشفنا

بسرعة أن صوته كان مشحونا بعبق مواسم منسية وأنه كان يعيش زمانا مختلفا يحل بسرعة ودون ضجيج مكان زماننا.

حين وصلنا الى الشاطئ خرجنا جميعا الاّ الرجل الغريب، سحبناه خارجا ونحن نظن أنه اصيب بالتعب بسبب العوم لفترة طويلة، لكننا اكتشفنا أنه كان ميتا، شعرنا بالرعب حين تذكرنا أننا إستمعنا بشغف لغنائه، غناء شخص ميت! إنكفأنا على آذاننا فوق الرمل ليس فقط لإخراج الماء من آذاننا بل لمحاولة طرد غناء الميت الذي اخترق ذاكرتنا وصبغ كل شئ بلونه الأصفر، حاولنا تبين شكل الميت في ضوء القمر لمحاولة التعرف عليه، كان رجلا وسيما، يتهدل شعر رأسه فوق جبهته، حين حدقنا في وجهه اكتشفنا أنّ إحدى عينيه كانت عوراء.

أرسلنا أصغرنا سنا ليحضر ثوبا نكفّن به الغريب، لكن مضى زمن طويل ولم يحضر الشخص الذي ارسلناه فذهب رجل آخر اختفي بدوره، ثم ذهب رجل آخر وهكذا حتى بقيت وحدى مع الجثة، فجأة سمعت صوت غناء غريب يفتت الزمان من حولك فلا تعرف في أي زمان أنت، كان الغناء صادرا من جثة الرجل الوسيم الأعور، وفجأة مع إرتفاع صوت الغناء، الذي تجاوب معه العالم، بدأت العاصفة، كنت أجري في إتجاه لأجد نفسي في اتجاه آخر حتى وجدت نفسي هنا.

أيقظني حمد النور بضربة على قدمي، شعرت بيد خارقة تمتد نحوي وتقتلعني من العاصفة. جسمي كله كان لا يزال غارقا في الرمل، بصقت ترابا، حتى صوتي كان رمليا جافا، قال لي حمد النور: لماذا لم تغتسل من كل هذا التراب قبل أن تخلد للنوم؟!

رغم الصور الغائمة في ذاكرتي لم أفهم سؤاله، قلت : هل دهمتنا عاصفة بالأمس؟

قال لي يبدو أنك أفرطت في الشراب، هل نسيت العاصفة التي دهمتنا أثناء عودتنا من الليلة الانتخابية، حتى أن السائق ضلّ الطريق وظللنا عدة ساعات تائهين حتى إنجلت العاصفة واستطاع السائق الخبير ان يحدد مكاننا عن طريق النجوم! حككت رأسي فتساقط الرمل من شعري، وقلت لكنني أتذكر شيئا آخر! بدلا من الدهشة

رأيت في وجهه شيئا يشبه الرعب، كأنه عرف أنني كنت قادم في تلك اللحظة من مكان وزمان، لا يمكن وصفه أو تحديده .

فجأة رأيت شخصا منهمك بجانبي في الكتابة على القماش، نظرت إليه كأنني أراه للمرة الأولى في حياتي، شعرت بدوار يحيل بطني وأطرافي الى فراغ، دوامة ذكريات هوائية مثل العاصفة، اقتلعت من أعماق ذاكرتي مشهد الميت الأعور الوسيم وألقتها خارج الذاكرة: خارج النسيان، رأيت عبد الرحيم يمسك بالفرشاة ويهذي في فراغ الفراشات: يجب أن أتزوجها قبل أن يقتلونها!

قال السيد: دعنا ننتظر ما سيفعله الطيب الزين اليوم، لقد وعد أن يزور أهلها ويحل المشكلة.

غمس عبد الرحيم الفرشاة في اللون الأحمر ليكتب: ابنكم البار وقال: لا يمكن لعاق سرق المال الذي ادخره والديه لتعليمه وهرب، أن يحل أية مشكلة!. حاول سليم الدفاع عنه: لقد رأيته يبكي بحرقة على قبر والديه!

قال عبد الرحيم: ولماذا لم يزر قبر والديه الا بعد أن أعلن ترشيحه ونهش خصومه لحم عقوقه! وفي النهاية هم أيضا يريدون فقط تخفيض الثمن الذي يطلبه لقاء التنازل، بينما نحن العشرة البلهاء نجد السير في ركابه فرصة للعمل وسط الناس بعيدا عن رقابة أجهزة الأمن، ومن الذي كان يراقبني اذن حين ذهبت لتناول جرعتي الرابعة من دوائي : كلوروكوين الحب!

لم يعد الطيب الزين حتى إنصرم النهار، كان عبد الرحيم نائما فوق اللافتات الانتخابية، حين إنصرم النهار، يهذي من الحمى والحب، قال له السر::

عدم إكمال جرعات الكلوروكوين سيجعل الملاريا تستوطن في كبدك. لكن عبد الرحيم لم يرد، كان بريق عينيه الحزينتين يلوّن العالم من حوله بلون الحزن.

كان يشعر بالشوق لحقل الذرة، لفوضى أجهزة الكاسيت، التي تصدح بالغناء دون كلل، فجأة إنتفض من رقدته وقال، سأذهب اليها، لو إنتظرت الطيب الزين ليحل مشكلتي سيصبح ذلك مثل إنتظار والديه لعودته بعد أن هرب من البيت! أمسك به السيد، لو ذهبت سيقتلونك، لكن عبد الرحيم لم يهتم بالتحذير، إرتدى بنطلون الجينز، قميصه الكاروهات، نظر في مرآة مثبتة على الحائط، فرأى عينيه الحزينيتين بفضل الملاريا والحب، ووجهه الناحل، وشعره المرسل في كل إتجاه، أصلح من وضع شعره بيده، ثم وضع قدميه في حذائه وإنطلق الى المدينة.

أشار أحد الأشباح الذين تحلقوا من حولي في ضوء القمر لزجاجة عرق التمر بجانبي، أمروني بمرافقتهم، طلبت منهم الإنتظار لأرتدي ملابسي فقد كنت ألبس سروالا وقميصا خفيفا، لكن أحدهم أشار للجلباب بجانبي وقال لي يمكنك ارتدائه، لحسن الحظ لم تشعر أمي وشقيقتي في الداخل بما يحدث، في الخارج وجدنا سيارة لاند كروزر خضراء تشبه السيارات التي يستخدمها الجيش في إنتظارنا، كان هناك جنديان في العربة، ركبنا جميعا في الخلف، كان هناك ضابط عسكري يجلس بجانب السائق في الأمام،عرفت فيما بعد أنه قاض لمحكمة النظام العام، توقفت السيارة بعد قليل أمام بيت في أطراف القرية تحف به أشجار المسكيت، ذهب ثلاثة من الجنود وبقي جندي واحد معي في السيارة فيما كان الضابط الجالس في المقدمة بجانب السائق لا يحرك ساكنا، عاد الجنود بعد دقائق ومعهم رجل طويل وإمرأة، حين جلس الرجل بجانبي عرفته على الفور، اسمه جون، مواطن نزح من جنوب الوطن بسبب الحرب، عمل معنا لفترة في المدرسة، كان ينظف المدرسة ويملأ أزيار الماء، كان شخصا لطيفا، يؤدي عمله بعناية وكنا نستمتع كثيرا في المدرسة برفقته وحكاياته الكثيرة. صافحت جون، وتحادثنا حول أيام عملنا سويا، توقفت السيارة مرة أخرى، ومرة اخرى تسلّق الجنود سور البيت ثم عادوا بعد قليل يصطحبون رجلا كان يتحدث بإنفعال مع أحد الجنود، تعرفت فيه على عبد الكريم الذي كان قد هجر القرية منذ سنوات ولم أعرف بعودته الا في تلك اللحظة، صافحته وعرفت منه أنه عاد في عطلة قصيرة وأنه يعمل في أحدى السفن النهرية التي تعمل بين كوستي وملكال وأنهم بسبب الحرب لا يعملون منذ فترة طويلة.

وُضعنا ما عدا المرأة في زنزانة نقطة الشرطة، وبعد حوالي الساعة مثلنا أمام القاضي العسكري، لم تستغرق محاكمتي سوى الوقت الذي استغرقه تلاوة الحكم بجلدي بسبب السكر، ثم نفذت عقوبة الجلد فينا منتصف النهار في السوق.

ذهبت في اليوم التالي الى مزرعة العم الطاهر، رحب بي بشدة وبدا كأنه لم يسمع بما حدث، ثم قال لي فجأة: عش حياتك بصورة عادية، أنت لم تسرق شيئا، اللصوص هم من يحكموننا وهم من جلدوك، هم من يجب أن يشعر بالخجل، كلامه أراحني قليلا والواقع أنني لم أشعر بالفعل بالخجل رغم أن عددا كبيرا من تلاميذي شاهدوا عملية الجلد، كأن الأمر كان مقصودا أن أفقد وقاري أمامهم، قلت: ربما لن أستطيع العودة مرة أخرى للتدريس، قال لي بالعكس، تعرضك للظلم وإقتحام بيتك ليلا بدون وجه حق وبطريقة لا يقرها قانون او دين، لا يجعلك مجرما، بل أنت شاهد على إجرامهم وإحتقارهم للناس، لو كنت مكانك سأعود لتدريس هؤلاء الطلاب، لعلك تسهم قليلا في الحد من تلويث عقولهم.

كنت قد نسيت تقريبا أمر الاستدعاء الأخير الذي تجاهلته، وحسبت أنّ الأمر إنتهى بتنفيذ عقوبة الجلد في السوق، التي من المؤكد أنهم هم من قاموا بتدبيرها، لكنني كنت مخطئا.

حين عدنا مساء لم يكن عبد الرحيم قد عاد بعد، شعرت بقلق شديد عليه، قال الطيب الزين: لن يحدث له مكروه، لقد أبلغت عم الفتاة بطلبه للزواج منها، لكنه أخبرني أن الوقت غير مناسب الآن لأنّ الفتاة نُقلت الى قرية في عمق الصحراء ستقضي فيها فترة مع عمها الآخر.

قلت: أخشى أنهم قد يتخلصون منها هناك، فكر الطيب الزين قليلا، ثم قال دون إهتمام: ربما!، ثم طغى على صوته شئ من الإنفعال وهو يقول: لقد أدخلنا عبد الرحيم في ورطة، كنت أظن أن موقفي سيكون جيدا حين تدعمني مجموعة من الشباب المتعلمين، المهمومين بقضايا وطنهم، لقد وجدوها فرصة لتشويه صورتي،

فكّرت سرا: التشويه موجود منذ البداية على الجدران وقبل أن يغرق عبد الرحيم في كلوروكوين الحب!

سكت الطيب الزين برهة إلتقط فيها أنفاسه، كأنه شعر بالخجل حين فهم ما فكّرت فيه، أغمض عينيه وقذف كأس الشراب في جوفه كأنه يقذف حجرا، كأنّ تلك كانت الطريقة الأفضل لينسى ما قاله، وضع الكوب فوق المنضدة المتسخة أمامه، وقال: بودي أن تنصحوه ليعود الى الخرطوم!

قلت: إذا عاد عبد الرحيم سنعود كلنا معه!

كانت كلماتي واضحة لا لبس فيها، تراجع الطيب الزين بسرعة وهو ينظر لي بإرتباك حاول أن يوحي به أنه لا يعي تماما ما يقول، وقال: لا أقصد شيئا، أخشى فقط أن يتعرّض له شخص ما بمكروه، خلع العمامة عن رأسه الأصلع وألقاها جانبا، ومصمص شفتيه من آثار مرارة عرق التمر وقال:

في كل الأحوال لم تبق سوى أيام قليلة على بدء الإقتراع، ثم حاول تغيير الموضوع بالحديث حول برنامج الغد، طلب من حمد النور أن يجلس بجانبه ليتشاورا حول الكلمة التي سيلقيها غدا في تجمع إنتخابي، فيما كان السيد هو الوحيد المنهمك في كتابة لافتات إنتخابية جديدة.

وضع له حمد النور بعض النقاط التي يجب أن يركّز في حديثه عنها، ثم طلب منه أن يعلّق عليها، أعاد له الطيب الزين الورقة بعد قليل، وضع حمد النور خطا أسفل بعض تعليقات الطيب الزين وقال:

أنت هنا تتفوق على مرشح الحكومة نفسه في تبني خط الحكومة!

قال الطيب الزين: أفضل أن أركّز معركتي مع المرشح نفسه، سأكون مُجبرا على التعامل مع الحكومة، لأضمن تنفيذ برنامجي الانتخابي!

فكرت سرا: كل ما كان يقوله عبد الرحيم صحيح إذن!

قلت له: لو عرضوا عليك منصبا ما، بعد الانتخابات هل ستقبل به؟

شعرت بقليل من الندم من قسوة السؤال، فحاولت تخفيف ذلك بأن قلت: أقصد أنهم درجوا على محاولة إستمالة كل من يثبت إمتلاكه لشعبية ما.!

أطرق حزينا من سطوة الخمر في رأسه، وبدلا من أن يحدجني بنظرته القاسية، غرقت عيناه في الفراغ، مسح بيده على رأسه الأصلع ووجهه الضخم، الذي بدا لي في غبار النيون شبيها بوجه شخص ميت، ثم دبّت الحياة في وجهه قبل أن يعلن: وقال: هذا نظام قوي، إستطاع تدمير كل خصومه، نحن نريد خدمة أهلنا، بالطبع النظام لا يلبي تطلعاتنا لكن ... ضحكت سرا حين قال تطلعاتنا، نظر لي شذرا وقال: لن نستبق الأحداث، نحن الآن في معركة مكشوفة مع النظام، سقوط مرشحه، سيعني فشل سياسات النظام طوال السنوات الماضية، مجرد أن يفكّر النظام في التعامل مع وجوه محسوبة على المعارضة ستعني أنه يتغير! هناك شائعات أن حزبنا قد يشارك مع الحكومة.

قال الطاهر الذي كنا نظن أنه نائم: هل يوجد لدينا نظام ديمقراطي؟

تذكرت عبد الرحيم، وقلت على لسانه رغم شعوري بالقلق عليه: ومن سيعرف ذلك في هذه الصحراء النائية!

حدجني الطيب الزين بنظرة دهشة، كأنه تذكّر أنه سمع هذه العبارة يوما، رجحت أنه لم يتذكر أنه هو قائل هذه العبارة، قلت: أي فرع في حزبك تقصد؟ بدا سعيدا بنشوة نصر بائس، رجّحت أنه بفعل الخمر، تجاهل سؤالي تماما، رغم أنه أجاب على سؤالي مقدما، حين قال: هذا نظام قوي! سيكون إذن دائما في حزبه مع الجناح القريب من التفاهم مع السلطة.!

فتحت عيني على منظر أزيار الماء تحيط بها صخور متشققة في الفناء، وشجرة التين الشوكي التي تقف مثل حارس يحرس أزيار الماء، وعلى صوت أمي تقول: سنكون بخير، لا تفكر فينا وسافر فورا، لا مستقبل لك في هذه البلاد.

ثم ترددت قليلا وهي تقول: نحتاج أيضا أن تسافر لترسل لنا المال، الزراعة لم تعد مجدية، ألا ترى أن معظم الشباب هجروها وسافروا الى بلاد أخرى بحثا عن أية عمل؟ كنت أعرف أنها تفضل أن نعاني شظف العيش على أن يسافر إبنها الوحيد بعيدا عنها، مجرد التفكير في السفر كان يرهقني، قلت لها سأفكر في الأمر، مساء اليوم نفسه إستيقظت على مشهد قريب من مشهد الاعتقال والجلد، سوى أن اشكالهم كانت تبدو مختلفة، ملابس مدنية، ونظارات سوداء رغم الليل الذي يضئ غبار النجوم عتمته، كنت بين اليقظة والنوم، أستمع الى نغمات بعيدة تتماوج حسب إتجاه الريح لتصبح بعيدة أحيانا ويطغى عليها صوت زيزان الحقول، تبدو لي بوابة البيت النوبية الضخمة غارقة في سراب ضوء النجوم مثل شراع مركب، سمعت ما بدا لي صوت محرك سيارة لكن ذلك لم يكن شيئا نادرا رغم الوقت المتأخر، ربما شخص مريض ينقلونه للمستشفى الذي يقع على بعد بضعة كيلومترات، أو امرأة لم تستطع القابلة المحلية توليدها، فجأة رأيت مجموعة من الأشخاص يحيطون بفراشي، نريدك معنا قال أحدهم بصوت هامس، ستجيب على بعض الاسئلة ونعيدك لفراشك قبل شروق الشمس، قلت له: هل يمكنني إبلاغ والدتي وشقيقتي حتى لا تقلقا بشأني، قال لي: قلت لك ستعود قبل أن يستيقظا، صدّقته، لأنه لم يكن هناك من خيار غير ذلك، خرجنا وحين همت السيارة بالانطلاق سمعت صوت عبد العاطي يؤذن في المسيد لصلاة الصبح، بدا لي الصوت غريبا كأنه يهبط من عوالم أخرى، كأن شخصا آخر كان يؤذن في الواقع، فالصوت الساحر بدا لي من المؤكد أنني لم أعرف صاحبه أبدا.

وجدت نفسي أسير في قافلة من الرجال المتعجلين، هل سنسير المسافة الى المدينة على أقدامنا؟ صوت غامض كان يرافقنا في رحلتنا، يشبه صوت محرك عربة قديمة يزعق في رمال الصحراء، رأيت القافلة بعيون صديقي دينق الذي إلتقيته

قبل أشهر أثناء رحلة طويلة جبت فيها أجزاءا من الوطن، وأحضرته معي ليعيش في القرية، حين عثرت عليه كان قد أفلح في الهروب من المجموعة المسلحة التي إختطفته بعد إحراق قريتهم وقتل كل الرجال فيها بأوامر من الجيش، تعاطفت معه منذ اللحظة الأولى فقد شهدت بنفسي قبل سنوات منظرا مشابها حين رافقت وحدة من الجيش كانت تجوب بعض القرى في الجنوب بحثا عن المتمردين.

إلتقيت دينق أثناء رحلة الى تلك المنطقة في غرب بلادنا الواقعة بين الصحراء و السافنا البستانية، في مدينة بلا قلب، تخيم عليها أجواء الحروب الأهلية ومواسم القحط والمجاعات المنسية، لم ألاحظ أنني في الواقع حين زرت تلك المدينة كنت أبحث عن تفاصيل حياة أخرى عشتها قبل سنوات في مدينة مشابهة بعيدة على تخوم الحدود المعاكسة، كانت أيضا غارقة في أتون الحرب الأهلية، تأوي في شوارعها مئات اللاجئين من مختلف الحروب الأهلية بإمتداد القارة، فقدت في تلك الرحلة واحدا من أعزّ أصدقائي، وظللت أتعرّض بسبب تلك الرحلة لمتاعب ومضايقات من الأجهزة الرسمية، إمتدت لسنوات بسبب التقرير الذي كتبته في تلك المدينة عن الرجل الذي كان يرشّحه الحزب الذي كنت عضوا فيه آنذاك ليقود إنقلابا عسكريا.

في رحلتي الثانية التي إلتقيت فيها دينق، كنت قد وصلت الى هذه المدينة مع صديق يبيع كل شئ في تسفاره في المدن المنسية على تخوم الحروب، تعتاش من تجارة كل مخلّفات الحروب، كان يملك شيئا لبيعه لكل إنسان، يبيع أدوية للحيوانات وأدوية للبشر، تعلّم إعطاء مرضى الملاريا حقن الكلوروكوين، فأطلق عليه البعض لقب الدكتور، صدّق وظيفته الجديدة، قال لي مفسرا ذلك: أنظر في كل مكان يوجد أشخاص لا يحملون أية مؤهل لكنهم بقدرة الله تحولوا الى جنرالات ومهندسين وسياسيين، أجرى بعض العمليات البسيطة كما حكى لي، قال : الناس يموتون هنا على كل حال، من لم يمت بطلقة رصاص مات بالملاريا أو الجوع، يبيع للأصحاء الذين يملكون مالا أقراص الفيتامينات منتهية الصلاحية، يبيع الاكسسوارات النسائية وأقراص منع الحمل للعاهرات، ومساحيق تفتيح لون

البشرة للصبايا، لديه من البضائع ما يكفي ليبيع لكل الأطراف المتحاربة دون فرز، ضميره يخلد للنوم في ظلال معاهدة سلام خاصة، يبيع السكر وقطع الصابون ومساحيق التجميل الرخيصة للأرامل اللائي فقدن أزواجهن في الحروب التي لا تنتهي الا لتبدأ بمسميات جديدة، ويعرض لهن أيضا دواء منع الحمل حين يتراجع خطر الحرب ويتقدم شبح المجاعة، لديه سلع حين يهطل المطر، وسلع لمواسم القحط، الشئ الوحيد الذي لم يجد له مشتريا كان المبيدات الحشرية، التي كان سعيدا بأنه لم يحضر منها الكثير: قال بعد أن شرب كوبا من المريسة الباردة: يا للغباء! مبيدات حشرية والناس تأكل الجراد!

حين قررت أنني رأيت ما يكفي وأنني يجب أن أعود من حيث أتيت، طلب مني دينق أن أصحبه معي، كان يحلم بأرض آمنة وبراحة يستأنف بعدها البحث عن من قد يكون نجا من افراد اسرته من المجزرة وعن نياندينق، أعطاه العم الطاهر قطعة أرض ليفلحها، وسرعان ما تمددت جذوره في الأرض، كان العم الطاهر معجبا به، بقوة عزيمته، بتساميه على جراحه العظيمة، يقول: الانسان الأصيل تتمدد جذوره في الأرض الطيبة بسرعة..

تلاشى صوت محرك السيارة رويدا رويدا في الفراغ، فراغ يمتد حتى ذاكرتي، يقطعه فقط صوت دينق وهو يحكي في لقائنا الأول قصة الرحلة ما بعد المجزرة التي إرتكبها الجيش في قريتهم:

القافلة تمضي ببطء، يتعالي بين الفينة والأخرى صوت صراخ الأطفال وبكاء النسوة، لم أعد أميّز شيئا من حولي منذ اللحظة التي رأيت فيها أبي يذبح أمامي، كل الصور أمامي تدور في مرجل غبار يبتلع رأسي، تسقط على رأسي أحيانا ضربات سوط فلا أحس بأية ألم، أحيانا تسقط في حمى الغبار صورة فتاة تشبه شجرة أبنوس، حضورها له دفْ الشمس، عندها أرى أمامي لبرهة تنقشع فيها الرمال: أرى في المدى أبقارا لا حصر لها تمشي في مقدمة القافلة، بينما من الجانبين والخلف يحرس القافلة رجال ملثّمون على صهوة الخيول، تتوقف القافلة أحيانا يدفع لي أحدهم بشئ أضعه في فمي آليا، ملابسي مليئة بالغبار والدموع

والمخاط والعرق، أستغرق أحيانا في النوم، فيوقظني رأس أبي حين يسقط أمامي فجأة، وهو لا يزال يقطر دما .

حين إستيقظنا صباحا، وجدنا عبد الرحيم نائما على الارض بملابسه التي خرج بها، بدا منظره وهو غارق في عرقه فوق البساط المترب، وسط بقايا الورق والألوان وقطع البوص المستخدمة في الكتابة، وصوت جهاز الكاسيت الذي يغني في الجوار: عقبال بيك نفرح يا زينة، وصوت عصافير الضحى تغرد فوق شجرة الحناء في الخارج، مثل لوحة سوريالية لا يمكن تخيل وجود العالم بدونها. فتحت الشبّاك، فدخلت نسمة شاردة خففت قليلا من الحرارة المكبوتة في الداخل، والتي تحركها مروحة السقف طوال النهار بصوتها المعدني: (زيك .. زيك .. زيك).

بقي من الزمن ثلاثة أيام قال الطاهر، سأله حمد النور ضاحكا وكانه لا يعرف حقا: على ماذا بقي ثلاثة أيام؟

قال الطاهر آليا دون تفكير: على بدء الإقتراع في الإنتخابات! قال حمد النور: هل يوجد لدينا نظام ديمقراطي؟

ضحك الطاهر وقال: ومن سيعرف ذلك في هذه الصحراء النائية!

ثم أكمل: إذن سيكون الصحيح هكذا: بقي من الزمن ثلاثة أيام على بدء التزوير!

قال حمد النور سنسافر فور إنتهاء الإقتراع وقبل إعلان نتيجة التزوير، وإلا سيقبض علينا. نظر لي وقال: هل ستسافر معنا، قلت : سنعود أنا ودينق الى مزرعة العم الطاهر، سنحمي هروبكم، إذا تركونا في حالنا قد نزرع شيئا في موسم الشتاء واذا نجح موسم الزراعة ستحضرون جميعا لحضور زواجي!.لاحظ حمد النور: دائما ما تربط زواجك بنجاح شئ لا تستطيع ضمان حدوثه! لا يمكنك إلقاء اللوم على الحكومة أو العناية الالهية في كل مرة. يجدر بك البحث عن سبب جديد هذه المرة!

تمطى عبد الرحيم فوق الألوان المتناثرة في الأرض وقال: سأبقى معكم، لم يعترض أحد سوى الطاهر الذي ذّكره: هل نسيت الإمتحانات؟ بدا ساهما قليلا وهو يحدق في فضاء أشجار النيم عبر الشباك: لن أدخل أية امتحان ما لم أعرف أين توجد سناء! كان قد تسكع في قريتهم دون أن يجد أثرا ثم عرف من عجوز تبيع ثمار النبق واللالوب أمام المدرسة الأساسية، أنّ عم الفتاة حضر وأصطحبها الى قريته، أشارت له الى جبل بعيد في عمق الصحراء وأوضحت أن القرية تقع في سفح ذلك الجبل.

في الخارج فتحت عيني على العالم الغارق في الفضة، خيوط الضوء التي كانت تهبط من أعالي أشجار النخيل، من خلف الكثبان الناعمة التي يتزلج فوقها الصبية في أيام الصيف، وتولد فوقها أول أنغام الحب الأول الشاردة، كانت آخر فلول الظلام تهرب أمام شلال الضوء .

إنطلقت السيارة في الصحراء مخلّفة في القرية عاصفة من الغبار، لتعبر الطريق الذي يتلوى مثل ثعبان في المدى الغارق في شلالات ضوء الفجر، الذي تتناثر في طوفانه أشباح أشجار الطندب والطرفاء، وضوضاء عراك الكلاب الضالة في المزارع البعيدة

لحسن الحظ أن بعض من خرجوا لأداء الصلاة شاهدوا العربة الغريبة تنطلق من أمام بيتنا وكان ذلك هو الشئ الوحيد الذي جعل والدتي تطمئن أنني لا زلت على قيد الحياة، أخبرها العم الطاهر الذي كان يعلم بأمر الاستدعاء الذي رفضت أن أقوم بتلبيته بأنني محتجز عند الحكومة، وأنهم مؤكد سيفرجون عني حين لا يجدون شيئا ضدي، تقاسمت مع ثلاثة رجال زنزانة ضيقة، إثنان منهما كان ناشطان مع أحد الأحزاب والثالث نقابي عجوز، عمل لفترة طويلة من حياته في مصلحة السكة الحديد قبل أن يطرد من وظيفته بعد الإنقلاب العسكري. تعرضت في الأيام الأولى لحبس إنفرادي وحرمان من النوم، وإيقاظ من النوم بالماء المثلج، كما تعرضت مع زملائي لعملية إعدام وهمية، عصبت أعيننا في احدى الليالي وأخذنا الى مكان خارج المدينة، أنزلنا من السيارة وجعلونا نقف في صف واحد ثم سمعنا صوت إعداد السلاح، وصوت عراك المعاول مع الأرض الحجرية في اشارة فيما يبدو لإعداد قبورنا، أعلن أحدهم أن حكما صدر بإعدامنا سيتم تنفيذه الان، وقال إننا ننتمي لتنظيمات ملحدة لذلك لا تجوز فينا الرحمة، مرّت لحظات عصيبة، رأيت فيها شريط حياتي يعبر من أمامي، ورأيت والدتي تجلس في حزن في ظلال شجرة النيم في الفناء، تمرح من حولها الدجاجات التي تنبش الأرض بحثا عن حبوب الذرة، رأيت سميرة تمضي في رحلة إنتظار تشبه الموت، تتراجع من حولها كل مظاهر الحياة، يختفي حتى هديل القمري. وهي تلبس ملابس سوداء وتقف وسط حقل أحمر من شجيرات الكركدي، قبل أن نسمع صوت بوق سيارة أخرى توقفت بجانبنا ودار حديث هامس، أخبرنا أحدهم على أثره أن تنفيذ الحكم قد تأجل بناء على أوامر عليا.

تعرفت الى طرق غريبة للتعذيب لم أسمع بها من قبل، حرمت من النوم طوال ليال ومن الإستحمام، في المرة الأولى التي يستجوبني فيها شخص ما، لم يسألني هذه المرة عن التقرير أو يطلب مني التوقيع على تقرير آخر، كما عرضوا عليّ قبل سنوات. وجّه لي سؤالا حول أسباب رفضي العودة الى صفوف حزبي وخدمة وطني من خلاله، وقال لي لقد كنت كادرا نشطا في حزبنا فكيف تنضم الى تنظيمات يسارية لا تؤمن بوجود الله، أوضحت له أنني منذ أن استقلت من الحزب

لم أنضم لأية حزب أو تنظيم سياسي، كما أنّ الأحزاب السياسية لا تزال محظورة عن النشاط السياسي فكيف سانضم لحزب ما؟ سألني عن واقعة رفضي لبعض منظمات الحزب الحاكم من مخاطبة الطلاب في مدرستي، حول أهمية الجهاد في جنوب الوطن، شرحت له وجهة نظري، أن هؤلاء مجرد أطفال، من الأفضل حثّهم على مواصلة تلقي العلم، وتبني ثقافة السلام بدلا من دفعهم الى الحروب وهم في هذه السن. كما أنني أؤمن بأن الحل لمشاكل وطننا لا يجب ان يكون بالحرب، وأن الحرب وممارسات الجيش هي التي عقّدت المشكلة في جنوب بلادنا. بدا كأنه يستمع لي بإهتمام وهو يدون بعض الملاحظات ثم سألني ان كنت أرغب في شئ ما قبل إعادتي الى زنزانتي، ترددت ثم طلبت أن يسمح لي بالإستحمام وإرسال رسالة لوالدتي، قال أن إرسال رسائل الآن ممنوع لكنه سيسمح لي بالإستحمام، عصرا فتح أحد المجندين زنزانتي وطلب مني الخروج، ثم أشار لي لمكان الحمام، وجدت جردل ماء مملوء حتى منتصفه، لم أجد صابونا، اكتفيت بفرك جسمي بقطعة من ليف النخيل وصببت الماء الساخن على جسمي، شعرت ببعض الإنتعاش، أعادني الجندي الى زنزانتي، شعرت برغبة في النوم وبراحة جسد خفيف تخلص من أوساخ شهر كامل، في اللحظة التي أغمضت فيها عيني، أيقظني أحدهم وطلب مني الخروج من الزنزانة، كان هناك عدد من الجنود في الفناء، دلق أحدهم جردل ماء مملوء أرضا وطلب مني التمرغ في الطين.

فجأة وفي حمى محاولة الفكاك من المستنقع الطيني، سمعت صوتا يناديني، لم أشك لحظة في أن الصوت كان قادما من العالم الآخر، له خواص جاذبة، يوقف ذاكرتك، يجعلك تتمرغ في أوحال ذكريات جديدة ينتزعها من ذاكرة أشخاص آخرين، تلهث من خلفه، في العدم، في لذة التحول الى لحن شارد، إلى سراب، الى فتاة تتشكل صورتها أمامك في حمى قيلولة النهر، من أغنيات تنثرها في هواء الدميرة أجهزة الكاسيت، قبل أن تضيع في عاصفة رملية، عرفت أن تلك كانت ذاكرة عبد الرحيم، في أول أيام الإقتراع، ثم رأيت نفسي أسير في غبار قافلة ضخمة بمحاذاة نهر صغير، كانت ذاكرة دينق، تتدفق شلالات ذكرياتها الى ذاكرتي دون حواجز، فأصبح أنا هو، ويصبح هو أنا، أسير مثل النائم، يبدو

الطريق أمامي مثل هاوية تتسلق الفضاء الى العدم، تلسعني أحيانا ضربات سوط، أو ضربات عصا، تدفعني لأسرع في سيري، أرى كرة من اللهب تنفذ من خلال غبار القافلة، ومن خلال الدموع، فأعرف أنه المغيب الذي لم يعد مغيبا، وأنه مقدمة لليل الذي تتوقف فيه القافلة قبل أن تعاود مسيرها في الفجر، مع أول خيوط صباح جديد بدون فائدة، شمس أخرى بدون نياندينق، يوم جديد لا يمكن حسابه كمسافة أقطعها في رحلة الوصول الى شمس نياندينق .

تمرّغت في التراب والطين وأنا أحاول لجم الغضب الشديد الذي شعرت به في حين كانت ضحكاتهم تجلجل في الفناء، بعد نهاية حفل الطين أمرني أحدهم بالعودة الى الزنزانة، عدت في غاية البؤس تمنيت لو أنني لم أطلب السماح لي بالإستحمام، فقد كان حالى قبل ذلك أفضل كثيرا من حالي الآن، إستقبلني زملاء الزنزانة بإنزعاج وأحضروا حصة ماء الشرب القليلة وساعدوني على غسل جسمي من الطين والتراب، الحقيقة أن كل أنواع التعذيب التي تعرضت لها في الأيام الماضية بما فيها حفلة الاعدام الوهمية، لم تصبني بمثل ما أصابتني حفلة الطين من قهر وإحباط، حكى لنا العم الأمين قصصا طويلة حول ألوان التعذيب التي يظل يتعرض لها طوال عهود الحكومات العسكرية، شعرت به يحاول بعث الثقة والثبات في نفسي، كان الشابان الآخران ينتميان لحزبي الأمة والاتحادي الديمقراطي أحدهما كان يشغل منصب محافظ رغم صغر سنه، كانت أحاديثنا تنصب كلها في نقد تجربة الفترة الديمقراطية، كنت أهاجم الحزبين الكبيرين وأقول أنهما سمحا مرة اخرى بضياع التجربة الديمقراطية وأنّ التاريخ يعيد نفسه فرئيس الوزراء كان يعلم بخبر إنقلاب وشيك لكنه لم يتخذ أية إجراء، والنتيجة وصول أكثر الاحزاب تطرفا الى السلطة. لحسن الحظ لم يكن أحد منهم يعلم بأنني كنت عضوا في صفوف ذلك التنظيم المتطرف، بل أنني كنت جزءا من الانقلاب نفسه، حين تم إرسالي للتقصي وجمع معلومات عن الرجل الذي يرشّحه الحزب ليكون قائدا للانقلاب، حقا أنّ تلك الرحلة فتحت عيوني على واقع لم أكن لأتعرف عليه لو لم أصبح جزءا منه، حين شهدت بعينيّ كيف يقومون بإعدام أشخاص أبرياء لمجرد أنهم عبروا في مناطق يشتبه بوجود متمردين فيها، بل ان الضابط نفسه

الذي اصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية، قتل دهسا بالسيارة كما سمعت من بعض الجنود، رجلا رفع يده لسائق السيارة ليتوقف ويقله معهم، حيث كان الرجل ذاهبا في نفس الاتجاه، ويبدو أنه كان يشعر بالتعب من المشي وحين سمع صوت السيّارة رفع يده أملا في أن يقوم السائق بالتوقف ليستقل السيارة ، دون أن يتوقع بالطبع أنّ السائق سوف يتوقف ليس بجانبه، بل فوق جسده.

حقا أنني حاولت التكفير عن ذنبي بالإستقالة من الحزب والابتعاد عن أية نشاط بعد رفض التقرير الذي أرسلته، وأوضحت فيه ان الرجل لا يصلح حتى لقيادة سيارة ناهيك عن قيادة وطن، وأوضحت قسوته البالغة وغير المبرّرة مع الأسرى والمدنيين بصورة عامة، وأنه لولا قسوته لأمكن إنقاذ بعض المدنيين الذين وقعوا في أسر التمرد وفيهم صديقي سراج، طالبت حركة التمرد بإطلاق سراح أحد قادتها المأسورين لدى القوات المسلحة، لكن العميد أصرّ على إعدام الأسير وشنّ عملية عسكرية لتحرير الأسرى لم يكن غرضه منها تحرير الاسرى، بل تكبيد حركة التمرد أكبر خسائر ممكنة، دون الاكتراث لمصير الاسرى الذين قتلوا كلهم، والراجح عندي أنهم قتلوا مع حرّاسهم المتمردين برصاص الجيش. وفي الوقت الذي كان يجب فيه محاكمته بسبب تجاوزه لتعليمات القيادة العليا بالتفاوض مع المتمردين، بدلا من ذلك قام حزبنا بإستدعائه لرئاسة الانقلاب العسكري الذي وقع بعد أيام قليلة من مجزرة الأسرى.

أخليت مسئوليتي من الحرب التي رأيت فظائعها، قلت: الحرب التي تدور الآن في الجنوب لا معنى لها سوى دفع أهل الجنوب من غير المسلمين الى القتال من أجل دولة مستقلة، وافقني العم الأمين رغم أنه قال أن مسئولية الحفاظ على النظام الديمقراطي يصعب تعليقها على شخص واحد مهما توفرت لديه من سلطة، وأنها كانت مسئولية جماعية تتحملها كل المنظات السياسية والمدنية، خاصة تلك التي وقّعت على ميثاق لحماية النظام الديمقراطي وحين وقت الواقعة لم تحرّك ساكنا، قال، المحزن رغم أن شعورا جماعيا متناميا بالكارثة الوشيكة توفر للجميع، لكن الجميع إنشغلوا بممارسة الحرية بضراوة كأنهم كانوا يعلمون أنها ستنسرب قريبا

من بين الاصابع، والنتيجة أن ضراوة الممارسة نفسها كانت إحدى المبررات الصفيقة لقيام الانقلاب: ضياع هيبة الدولة!

ثم قال العم الأمين: أتفق معك أن تحوّل الحرب الى حرب دينية ستكون عواقبه وخيمة على وحدة بلادنا، لكن يجب أن نلاحظ أيضا أنهم ربما لا يقصدون ذلك مباشرة ليصفو لهم الجو بل يستخدمون الأدوات المتاحة لهم لتكريس سلطتهم ومحاولة تضخيم خطر التمرد في الجنوب على وجود الدولة نفسها، وعسكرة المجتمع وإرهاب كل مطالب بالحرية بإعتبار ألا صوت يعلو فوق صوت بقاء الوطن، بينما كل ما يفعلونه هو إضاعة الوطن فعليا .

دافع الفاضل الذي ينتمي لحزب الأمة عن رئيس الوزراء وسياسات حزبه، قال: حزبنا كان الوحيد الذي لم يدخل سباق تدبير انقلاب عسكري، بعد سنوات طويلة من حكم عسكري وضع البلد على حافة إنهيار كان لا بد من بعض الوقت لاعادة ترتيب كل شئ، لكن لا أحد يصبر، تصبح الديمقراطية مثل اليتيم، لا أحد يهتم بالحفاظ عليها، أو يبكي على مصيرها المحتوم في حمى التدافع ليثبت كل منا حقوقه، أشار لعم الأمين وقال: أبسط مثال، النقابات العمالية، كلهم يعرفون أن الدولة تركها المشير شبه مفلسة ورغم ذلك كانوا يسيّرون قطارا لا ينتهي من المظاهرات اليومية، ما ساعد على تهيئة الجو لإنقلابيي الظلام الذين كانوا يتحينون الفرص ويختلقون الأعذار، عبر صحافة إفتقرت للقيم ولم تكن سوى أداة لتهيئة الناس لتقبل الوضع البديل، الذي كانت تنسج راياته التي ستصبح كفنا للديمقراطية الوليدة، ثم إبتسم وقال بخبث: كأنّ اليسار يتواطأ مع أقصى اليمين!

قال العم الأمين: النقابات خُلقت لتحمي حقوق العمال، الحلقة الأضعف في البناء، والفئة التي وقع عليها عسف الحكومة العسكرية السابقة، لقد دمّر المشير مرفق السكة الحديد عن سابق إصرار وترصد لإضعاف الفئة الأقوى في مواجهته. غير عابئ بأن الفقراء هم من سيدفع فاتورة ذلك العمل الأخرق، بتدمير مرفق النقل الأقل كلفة، ما فتح الباب أمام الرأسمالية الطفيلية لتتغول على قطاع النقل وتتحكم

فيه فترتفع أسعار السلع ويتضاعف عذاب الفقراء الأمر الذي عجّل تزامنا مع مصائب أخرى بإسقاط النظام .

وقال الفاضل كأنه يكمل مرافعته وهو ينظر الى التهامي الذي ينتمي الى الحزب الديمقراطي: الحزب الشريك لم يكن قويا بما فيه الكفاية، يكفي التذكير أنه وفي معظم الدوائر التي فازت فيها الجبهة القومية الاسلامية في انتخابات عام 1986 كان هناك حوالي أربعة مرشحين لحزبكم وستجد أن مجموع ما حصل عليه اثنان من مرشحيكم يتفوق على ما حصل عليه مرشح الجبهة الفائز !

قال التهامي: حزبكم واجه أيضا في بعض المناطق نفس المشكلة، لكن عموما لم تكن فترة الحكم العسكري بالسهلة، لقد فقدنا فيها أهم قادة حزبنا، الشريف الهندي، كان رجلا متفردا وربما لم يخش نظام المشير شخصا مثله، اضافة الى أن عدم إستمرارية ورسوخ التجربة الديمقراطية يجعلنا دائما نبدأ من نقطة الصفر، وقبل أن نبتعد كثيرا عن نقطة الصفر تدق مارشات الانقلاب العسكري.

قلت: أنتم يا أهل الاحزاب الطائفية آخر من تتحدثون عن ذلك، أنتم أيضا تخافون الإبتعاد عن نقطة الصفر التي ستعني تنامي الوعي الذي يهدد أحزابكم بأكثر مما تفعل الإنقلابات العسكرية، عندها تفضلون وضع الوعي في ثلاجة تغيير، بإنتظار فرصة أخرى، تعودون فيها وكأن شيئا لم يحدث، أحزابكم تسيطر عليها أسر معروفة وأنت حين تنضم كمثقف لهذه الأحزاب تختصر الطريق للوصول لمكاسب السلطة، وتعطي الطائفية عمرا جديدا بدفع دماء جديدة في جسمها المتهالك وتسّوقها للشعب وأجياله الجديدة التى ترى الطائفية من خلال وجوه شابة، متعلمة، فيما الوجه الطائفي المسيطر الحقيقي يستنسخ في قياداته، أنظر لما قلت حول إنفراط عقد الحزب بسبب وفاة أحد قياداته، مع تقديرنا للشريف كقائد وطني ثبت تفرده وتميزه، لكن ما دامت الطائفية تجتر نفس طرقها القديمة وتعتاش على إرث بيوتات معينة فالحزب سيبقى عرضة في أية لحظة للتفكك ما دام مصيره مربوطا بمصير أفراد مهما علت قيمتهم وقامتهم الفكرية والتنظيمية.

قال التهامي: من يسمع كلامك يظن أن اليسار يملك الحل، لكن الحقيقة أن ما تقوله لا تعاني منه الطائفية وحدها، ذلك في تقديري مشكل سوداني، أنظر الى نفسك ألا ترى أن عدوى عدم مقدرتنا على تخليص الحزب من جلباب الأفراد قد إنتقلت حتى الى الأحزاب التقدمية! نفس الوجوه، كأنّ ماكينة التقدم تسير الى الوراء أحيانا !

قال العم الأمين: لا يمكنك لوم شخص مطارد أو موجود في السجن على عدم التطور، الأحزاب الجديدة سعت لتوعية الناس بحقوقهم، ولم تسع لإستغلال الناس، مشكلة الطائفية هي إستغلال العاطفة الدينية في السياسة، ان الدين نفسه لم يعط لشخص ما حظوة ما إلا بمقدار تقواه وطبيعي أن التقوى كدرجة متقدمة من الإيمان بالفكرة ستبعد صاحبها عن التكسب بها .

قال التهامي: الطائفة أيا كان رأيكم فيها، جمعت أشتات الناس وساهمت في الحد من القبلية، الإنتماء للحزب يطغى على الإنتماءات الأخرى، أي أن الطائفة تؤدي نفس الدور الذي يريد بعض المثقفون إحتكاره للنقابات والقوى التقدمية، فحتى إن لم تقصد الطائفة ذلك فإن تراجع دور القبيلة يصب في مجرى تيار الوعي!

قال الفاضل: حزبنا تقدم كثيرا في تخفيف سيطرة بيت المهدي، قدّم قيادات شابة وفي ظني أن وجود آل المهدي على رأس الحزب سيتحول رمزيا، فالكثيرون يلتفون حول رمز المحرر المهدي، والأمر ليس بدعة، في دول كثيرة مثل الهند أو غيرها يوجد نفوذ سياسي لبعض الأسر هو في الحقيقة نفوذ عاطفي.

يستمع العم الأمين بإهتمام ويدون على ظهر علبة سجائر بخط ميكرسكوبي بعض الملاحظات.

قال التهامي متوجها بحديثه للفاضل: تتحدثون عن ضعف حزبنا وتنسى أن الحزب وقّع أهم معاهدة سلام مع حركة تحرير السودان، كان من شأنها إيقاف الحرب الأهلية بأقلّ الخسائر، لكن تردد رئيس الوزراء في التعامل معها أعطى الفرصة

لقيام الانقلاب. هل يحدث ذلك لأنها مبادرة من حزبنا أم أن رئيس الوزراء استجاب للحملة الغوغائية التي شنتها الجبهة القومية لتصوّر الإتفاقية من خلالها بأنها كارثة وأن البلاد والعقيدة في خطر شديد بسبب تلك الإتفاقية، الحملة التي سيتضح فيما بعد أنها كانت مجرد تمهيد للإنقلاب الوشيك.

قال الفاضل: كانت الإتفاقية نعمة ونقمة، أعطت أملا قويا للمرة الأولى منذ سقوط إتفاقية أديس أبابا، أنا متأكد أن السيد رئيس الوزراء لم يرفض الإتفاقية، قد يكون أنفق بعض الوقت قبل قبولها لمحاولة أيجاد رأي توافقي بين مختلف القوى السياسية حول الإتفاقية. النقمة ان الإتفاقية عجلت من خطط الجبهة للإنقضاض على السلطة لأنها عرفت أن إتفاق الاحزاب الكبيرة التي تشكل الحكومة مع الحركة الشعبية معناه نهاية طموحها في الوصول إلى السلطة .

المواطن الصالح يحلم بالمطر

لم يبق الكثير لعمله، إنتهت الحملة الإنتخابية، كانت المجموعة القادمة من الخرطوم تفضّل السفر في نفس يوم الإقتراع بينما قررنا أنا ودينق العودة الى القرية، ولأنّ عبد الرحيم لم يكن راغبا في السفر قبل أن يعرف مصير فتاته، فقد عرضنا عليه الذهاب معنا للقرية، كنا أنا ودينق نعمل في مزرعة العم الطاهر، دينق كان يقيم هناك بصفة دائمة، بينما كنت أتردد عليهم يوميا وفي فترة زحام الموسم الزراعي كنت أقضي الليل معهم أحيانا نلعب الورق على ضوء المصباح ويشاركنا العم الطاهر أحيانا اللعب.

بسبب إلحاح الطيب الزين قررنا البقاء ليومين معه في المدينة، لم نشارك كوكلاء للمرشح لكننا طفنا على بعض مراكز الانتخاب معه، في معظم المراكز كان الاقبال ضعيفا في الساعات الأولى ثم تزايد في منتصف النهار، حشدت الحكومة أنصارها، معظمهم كانوا خائفين من عصاها أو راغبين في جزرتها، لكن كان

واضحا أن الأغلبية ممن هبوا للتصويت، كانوا يمنحون المرشح الآخر المضاد لمرشح الحكومة أصواتهم .

كان معظم الناس يعرفون، أنهم لن يسمحوا للطيب الزين بالفوز، لكنهم وجدوها على الاقل فرصة لاظهار تمردهم على السلطة، معظم تجار المدينة دعموا الطيب الزين كراهية في النظام، رغم أنهم لم يجرؤوا على اعلان ذلك الدعم، خوفا من ملاحقات أجهزة الأمن والضرائب، أحد تجّار المدينة كان يحضر للطيب الزين في أوقات متأخرة ليلا، وإمعانا في التعمية منح مرشح الحكومة سيارته الخاصة لإستعمالها في تجواله حتى لا يتهم باستخدام سيارات الحكومة، لامه الطيب الزين: كيف تعطي سيارتك لمرشح الحكومة؟ ضحك التاجر وقال: لن تذهب السيارة لصندوق الإقتراع على كل حال.!

إستغرق الإقتراع ثلاثة أيام، في مساء اليوم الثالث نقلت الصناديق الى مركز المدينة لفرزها، لم يسمح للوكلاء بمرافقة صناديق الإقتراع بإعتبارها في يد أمينة ومحايدة، في يد الشرطة، لكن شهود عيان أكدوا أن العربات التي تقل الصناديق توقفت لبعض الوقت في نقاط مهجورة في الطريق، واضيفت لها أوراق كثيرة، جعلت فوز مرشح الحكومة ممكنا، قبل إعلان النتيجة كانت مجموعة الخرطوم عدا عبد الرحيم قد سافرت، لم ننتظر إعلان النتيجة، رجعنا بالمواصلات الى القرية، قضينا الليل في بيتنا، أعدت لنا زينب شقيقتي عشاء من خبز السناسن وحليب الماعز.

في اليوم التالي ذهبنا لمزرعة العم الطاهر، وجدنا معه شخصين يساعدانه في تنظيف العين التي يسحب منها محرك الديزل الماء، كانوا قد قاموا بإبعاد المحرك وطلمبة الماء جانبا داخل البئر التي تحيط بها شجيرات الخروع والحلفاء، وقاموا بإنزال المواسير التي تستخدم في التنظيف داخل البئر ثم قاموا بتركيب آلة شبيهة بألة الشادوف التي كانت تستخدم قديما لسحب الماء يدويا، يتناوب العمال في ضخ الماء داخل البئر ثم تحريك ذراع الشادوف لإخراج الماء المختلط بفتات الصخور من داخل عين الماء، كنا نريد مساعدتهم في العمل لكن العم الطاهر طلب منا أن

نذهب لنرتاح قليلا ثم نعد طعام الغداء، ساعدني عبد الرحيم في عمل ملاح الويكة فيما قام دينق بعمل خبز القراصة، لم يستغرق عمل الأكل طويلا، إستخدمنا لحم الغزلان المجفف التي يصطادها العم الطاهر.

بعد أيام من التحقيق الأول الذي إنتهى بحفل الطين، أُستدعيت مرة أخرى أمام شخص آخر، وقفت أمامه، لم يكن هناك مقعد في الغرفة الخانقة سوى المقعد الذي يجلس عليه، عرفت أنهم يعودون لأساليب الضغط التي استخدموها في الأيام الأولى، كان يقرأ بإهتمام في حزمة أوراق أمامه، وقد استند بمرفق يده اليمنى على منضدة المكتب الحديدية، فيما ارتفعت يده اليسرى بمجموعة من الأوراق التي يبدو أنه لم يطالعها بعد. لبثت واقفا لفترة طويلة قاربت الساعة، ثم رفع رأسه فجأة وقال دون مقدمات: تريد القيام إذن بثورة مسلحة ضد السلطة الشرعية. لم أقل شيئا، إنتهرني طالبا ردي على إتهامه، قلت له أنني شخص عادي لا أملك جيشا أو سلاحا لأقوم بثورة مسلحة، رفع إحدى الاوراق في وجهي كأن ذلك يثبت شيئا ما وقال: هل تذكر ما قلت في حفل استقبال الطلاب والمدرسين الجدد قبل أشهر أم تريدني ان أساعدك لتتذكر، قلت له لا أذكر بالتحديد ما تقصد لكنني أذكر جيدا أن المقام كان مقام مزاح ونكات، ولم نتحدّث طوال الوقت الذي إستغرقه الحفل في أية موضوع جاد، كما أنني لو كنت ارغب فيما تقول لما أعلنت ذلك في اجتماع عام، إنتهرني مرة أخرى بضربة على المكتب وأمرني أن أجيب على قدر الأسئلة التي يوجهها لي، ثم قال لي أنك تحدثت عن ثورة مسلحة، قلت، كانت هناك فقرة ساخرة إسمها ما الذي رأيته في منامك بالأمس، حكيت بصدق الحلم الذي شاهدته، كنت أقود مجموعة من الثوّار المسلحين، قاطعني: لم أكن أعلم أنّ أهل اليسار أيضا يحلمون!، رغم الضيق، إبتسمت، قال، أنت لست مواطنا صالحا،

المواطن الصالح يحلم أحلاما صالحة، يحلم بالمطر، يحلم بإنجازات الثورة، هلوسات الخمر تخرج خبايا النفوس المريضة، من يحلم بعدم الإستقرار،والحروب الأهلية، هم أعداء الوطن! قلت: وهل الحكومة أيضا يمكن تصنيفها ضمن أعداء الوطن هؤلاء؟ رفع رأسه وبعكس ما كنت أتوقع قال بهدوء: ماذا تقصد؟

قلت إن كنت أنا أحلم بثورة مسلحة وبحرب أهلية كما قلت، فإن الحكومة لا تحلم، بل هي من يقوم بذلك فعليا، هيّ من يشنّ الحروب، وبدلا من إيجاد حل للمشاكل بين القبائل، التي عاشت لقرون في سلام وكانت على وشك الانصهار في بعضها، تقوم بتسليح قبيلة ضد أخرى!

تركني واقفا لفترة دون أن يقول شيئا ردا على كلامي، قام أثناء ذلك بكتابة كل كلمة قلتها، ثم وضع القلم وقال: قبل أكثر من عام لم نعثر في بيتك على الصور التي إلتقطتها أثناء مرافقتك للجيش في إحدى مهماته لضرب حركة التمرد، وعدتنا أنك ستبحث عن الفلم وتحضره، ولم يحدث ذلك، قلت : أنا لم أعد بشئ، لقد قلت ما حدث، بعد رحلتي مع الجيش غادرت المدينة على عجل، وحين وصلت الى الخرطوم بحثت عن الكاميرا ولم أعثر عليها أبدا. ربما فقدتها في الطريق أو نسيتها في الفندق، إتصلت بالفندق فأبلغوني أنهم لم يجدوا شيئا في غرفتي ولكنهم سيتصلون بي إن تم العثور عليها، وقلت لكم يمكنكم التأكد من كلامي بالاتصال بالفندق، ولابد أنكم فعلتم ذلك، إن كان في تلك الصور شئ مهم لهذه الدرجة لكم! صمت قليلا، وبدا كأنه يريد أن يرد على كلامي، ثم غرق في صمت قصير، قبل أن يواصل أسئلته: هل تذكر حديثك يوم السوق قبل أسابيع عن رأس النظام الذي وصفته بالكاذب؟ قلت له أنني لا أذكر ما الذي اقوله يوم السوق، ففي العادة يلتقي الناس ويفترقون بسرعة وتكون هناك أثناء المصافحة والسؤال عن الحال أحاديث متعجلة لا تركز على موضوع محدد، حكى أشياء كثيرة قال أنني قلتها هناك، وأنني دعوت عددا من الناس للثورة على النظام، وأنني قلت تحديدا أن الحكومة الانقلابية رفعت الدعم عن مدخلات الزراعة وفي الوقت نفسه رفعت يدها عن حماية المنتجات المحلية ما يعني إنهيار أسعارها، وأن الدولة بصدد رفع يدها تماما

عن دعم التعليم والدواء، كرّرت له ما قلته أنني لا أذكر تحديدا متى حدث ذلك وان كان أصلا قد حدث.

قال لي عرفنا أنك كنت تريد الزواج من معلمة بمدرسة القرية لكن الزواج تأجّل بعد ان تركت وظيفتك، قال لي أن موقفك صعب، أنت متهم بالتآمر ضد السلطة، وتعبئة الناس ضدها وسبق لك الاستقالة من حزبك بدون أسباب مقبولة، ثم قال بنبرة تهديدية: أخشى انك تعلم بحكم موقعك السابق في الحزب أسرارا كثيرة قد لا يريد بعض الناس خروجها الى العلن! خاصة وأن حزبنا مستهدف من جهات كثيرة كما تعلم! ثم صمت طويلا، قبل أن يقول: مع كل هذه الاشياء سيصعب خروجك من السجن الا إذا تعاونت معنا، قلت له أنني لا أفهم ما الذي يريده مني تحديدا، قال لي لا أستطيع أن أعدك بشئ الان، لكن إذا تبدلت مواقفك تجاه النظام، وعدت الى صفوف حزبك يمكن أن تصبح أحوالك أفضل من السابق. يمكنك أن تختار الوظيفة التي ترغب فيها، عرفت أنّ كل مشكلتهم هي خوفهم من حديثي عن التقرير الذي كنت أعددته عن الرجل الذي أصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية.

حاولت أن أرسل رسالة تطمئنهم الى صمتي، قلت له أنني مجرد مواطن بسيط ومواقفي من النظام لن تعجّل برحيله، وأنني نسيت تماما كل تفاصيل المرحلة التي قضيتها مع الحزب وكل نشاطاتي معه، وأسعى لتجاوز تلك الفترة، فليس هناك بالتالي ما يدعوني الى الحديث عنها أو كشف أسرارها، لأنني أرى أن ذلك ليس من مصلحتي أنا ايضا، وأنه ليس لدي ما أستطيع أن أخدم به الحكومة، ولا أية حكومة أخرى.

قال لي أنصحك بعدم التعجل، أنت لا تزال شابا وسيكون سيئا أن تمضي عمرك خلف القضبان، ذكر لي بعض الأسماء لم أتعرف على بعضها وقال لي: هؤلاء منتمون لتيارات سياسية معارضة يعملون الآن مع الحكومة، لأنهم وجدوا جدية في التعامل مع كل القضايا الوطنية لم تتوفر للحكومات السابقة او حتى لتنظيماتهم السياسية، ما دامت مصلحة الوطن هي مقصدنا لماذا لا نعطي الآخرين فرصة ونستمع لأفكارهم؟ ألست داعية للحكم الديمقراطي، لماذا لا تحقق ذلك بالحوار

ومن داخل النظام السياسي نفسه بدلا من الحلول العسكرية او الانقلابات التي بسببها تأخرت بلادنا بين الأمم!

أدعيت عدم الفهم، شعرت به يحاول إستدراجي لأمضي في إتجاه يحدده هو، قلت: أنا لا أزعم لنفسي أنني داعية للديمقراطية كما وصفتني، أنا كما سبق لي القول، مجرد مواطن بسيط طموحي مثل طموح أية مواطن عادي، وأن الفترة التي قضيتها كناشط مع حزبي السابق أقنعتني أنني يجب الا أحترف العمل السياسي ويمكنني خدمة وطني من خلال العمل في مجال التعليم الذي مارسته منذ تركت الحزب وأحببته جدا.

كرّر لي كلامه أنه سيكون لدي وقت طويل للتفكير، ثم نادى على الجندي في الخارج لإعادتي للزنزانة، حكيت لرفاق الزنزانة ما دار ووجدت أنهم جميعا مروا بنفس العرض. قال التهامي مازحا: كلنا الآن في مرحلة التفكير قبل إتخاذ القرار! قال العم الأمين، يعيد هؤلاء البلهاء إنتاج كل تاريخ الاستبداد، دون أن يفكروا قليلا في أنهم يبدأون متأخرين قليلا ، وأنّ الزمان يتغير، يعيدون إنتاج الثورة الثقافية الصينية في القرن الحادي والعشرين، الاخوان المسلمون الذين طرحوا أنفسهم كضحايا للقمع يفعلون الآن في شعبنا أسوا مما حاق بهم في عهد عبد الناصر أو على يد حافظ الأسد في سوريا.

فجأة شاهدنا نجوما تتهاوى من حولنا، يبدو أن العاصفة خلخلت حتى أساسات مدارات النجوم، كانت مجموعة من الكواكب تشارك في إستعراض فضائي حول القمر، تتناثر في الفضاء ثم تعود لتتجمع من حول القمر، كيف سيحدد أحدهم مكاننا بإقتفاء هذه النجوم العابثة؟ بدأ أحد الرجال يتعرف على بعض النجوم، اكتشفت أننا لا نرى المشهد نفسه في اللحظة نفسها، وأنه بسبب العاصفة فإن الرؤيا كانت متاحة فقط من خلال منظار الذاكرة. دون أن نتفق على شيء، تقاربنا من بعضنا البعض، لنزداد تماسكا في مواجهة مصيرنا المجهول، حاولنا أن نتعامل مع العالم من حولنا بذاكرة موحدة، تخترق حجب ظلام العاصفة البركانية التي دمّرت كل شئ من حولنا، كان ذلك جهدا مرهقا، لكنه أثمر عالما بات يصبح مألوفا من حولنا، فإلتقطنا روائح عوالم منسية تهب من حولنا، وتلمسنا صوت الهدهد يبشر بعواصف قادمة، وإنساب هديل القمري قويا في خمول ساعات الضحى، إنطلقت حزمة ضوء خارقة من ذاكرتنا الجماعية تلتمس طريقا الى أعلى خارج نطاق العاصفة، تفتح في عبورها طبقات عوالم مألوفة، رأينا صورا من حياتنا القديمة معروضة في السماء، ووجوه متجمدة في المتاهة، تعود اليها الحياة تدريجيا.

حين أوشكت حزمة الضوء الخارقة على عبور آخر طبقة قبل ولوجها الى سمائنا القديمة، إنهارت الحزمة فوقنا فجأة إثر ضربة شهاب مجهول، سقطنا أرضا من فرط الصدمة واجهاد تركيز الذاكرة .

كانت السماء صافية الا من غبار النجوم، رأينا نجما يتهاوى في الفضاء، كنا نلعب الورق على ضوء مصباح الزيت، لم يلعب عبد الرحيم معنا، إكتفى بالجلوس

بجانبنا، كان الهواء مشحونا بضوء القمر، غبار النجوم ورائحة الطين وأصوات بعيدة، يحملها هواء موسم الدميرة:غناء بعض الصبية فوق كثبان الرمال، ونباح كلاب، يتعالى أحيانا غطيط العم الطاهر من على البعد، قبل أن يختفي اثر تعالي صوت موسيقى ساحرة تصدر عن جهاز كاسيت، موسيقى سائلة، تبلل الأذن، كان عبد الرحيم قد شعر ببعض الأمل أنه قد يرى سناء مرة أخرى، وعده العم الطاهر بالمساعدة، لأنّ الوقت تأخر قررت قضاء الليل مع دينق وعبد الرحيم، شربنا الشاي وغنينا، كان غنائنا يدخل بهدوء في دائرة الهواء، يرتفع ببطء فوق كثبان الرمال، يتسرب بعيدا، ثم يعود الينا بعد دقائق مع دورة الهواء: غناء عشاق ثلاثة، كنت أنا أكثرهم حظا، على الأقل كنت أعرف أين توجد سميرة في تلك اللحظة، تنام جوار أمها، في الفناء الواسع، الذي تحيط بجدرانه الطينية كثبان الرمال، لا يسمع صوت في العالم بخلاف أصوات الدميرة التي يحملها الهواء المتغيرأحيانا قبل أن تخفت مرة أخرى، سوى صوت سقوط قطرة ماء كل برهة من زير الماء الأحمر تحت شجرة النيم أمام صالة البيت الصغير،عبد الرحيم لا يعرف مكانا لسناء، و دينق لم يكن يعرف شيئا عن نياندينق، حين إلتقيته أثناء سفري كان يبحث عنها في كل مكان، هو نفسه كان يعيش على أمل أنها كانت لا تزال على قيد الحياة كما أكد له عرّاف إلتقاه في الصحراء أثناء رحلة بحثه عن نياندينق، التي بدأها منذ لحظة نجاحه في الهرب من آسريه الذين وثقوا فيه بعد أشهر من مراقبته وهو يعمل في رعي قطعانهم من الماشية.

شعرنا أننا بغنائنا: غناء العشّاق الثلاثة، صرنا جزءا من دورة الهواء والنجوم، يتبخّر غناؤنا في الهواء ثم يعود بعد قليل، يحمله الهواء ويدخله في دورة الليل والنجوم، يرفده بغناء معذّبين آخرين في أزمنة الخوف، فجأة هبّ عبد الرحيم واقفا وصرخ: إنه غناء سناء! إختفى الصوت الساحر بسرعة قبل أن نحاول إقتفاء مصدره، إثر دوامة هوائية ملأت وجوهنا ترابا وأضاعت أي أثر في الهواء للألحان الشاردة، جلسنا برهة لا نعرف ما الذي حدث، صدمة إنقطاع تيار الغناء المفاجئ أفقدنا التوازن، وجدنا أنفسنا خارج الليل وهوائه وغبار نجومه.

بعد خروجي من السجن، قضيت فترة في القرية، كنت أعود مرة في الاسبوع الى المدينة لأوقّع في جهاز الأمن بأنني موجود، تحت ضغوط أمي قررت السفر رغم أنه لم تكن لديّ فكرة محددة الى أين يجب أن أذهب، كانت والدتي في فترة سجني قد ارسلت رسالة لقريب لي يعمل في المملكة السعودية، أرسل لوالدتي ردا يؤكد فيه انه سيبذل كل مافي وسعه لمساعدتي في السفر والعمل هناك، وطلب أن أقوم بالاتصال به فور وصولي الى الخرطوم، حتى يرسل لي دعوة لأحصل بموجبها على فيزا للدخول، حين طلبت من سلطات الأمن اذن السفر، فوجئت بمعاملة الضابط لي تتحول بسرعة، دعاني للجلوس وطلب لي كوبا من القهوة، شعرت بأنه كان يشجعني على الهجرة بصورة غير مباشرة، حين أشار لفرص العمل القليلة المتوفرة للشباب بسبب الركود الإقتصادي الناجم عن العقوبات والإستهداف الخارجي للوطن، قال لي لو كنت مكانك لجرّبت الهجرة، ثم ضحك وقال: الهجرة مثل الحج تحتاج الى سن أصغر وقوة بدنية، ربما تعود بعد أعوام وقد تحسنت أحوالك وتحسنت أحوال البلد أيضا.

حين وصلت الى الخرطوم كنت لم أقرر بعد ما الذي يجب أن أفعل، فكّرت لو أنني عثرت على عمل في مجال التدريس فسيكون حلا مثاليا حتى لو كان المرتب قليلا مع منصرفات المدينة الكثيرة، كنت أشعر بخوف غامض من فكرة السفر خارج الوطن، لكنني إتصلت بقريبي في السعودية وأرسلت له صور من شهادات الدراسة وصورة من جواز السفر الذي قمت بإستخراجه للمرة الأولى، لاحظت أن الحصول على الجواز وإستخراج الشهادات تم بيسر ودون أية مشاكل بعكس ما كنت أتوقع .

وجدت مسكنا مع بعض أقاربي الشباب الذين يسكنون في بيت صغير في منطقة الكلاكلة.

المدينة تنام مبكرا بسبب قانون الطوارئ، بدت لي الحياة غريبة عن الخرطوم التي عرفت في سنوات الدراسة والنشاط الحزبي في العهد الديمقراطي، لم أجد أثرا لمعارض الكتب والإحتفالات الفنية التي كانت تميز الحياة فيها، تلقيت رسالة

من قريبي في المملكة السعودية عن طريق أحد الاخوة القادمين أخبرني أنه وجد لي عملا في نفس مجالي في إحدى المدارس، وطلب مني أن أستخرج الشهادات التي ساحتاج اليها، وسوف يرسل لي خلال أسابيع عقد العمل الذي سأطلب بموجبه الحصول على فيزا من السفارة. بحثت أيضا عن عمل في إحدى الشركات الخاصة بالخرطوم، في إنتظار إجراءات السفر، عرض عليّ أحد زملاء السكن، وكان جارا لنا في القرية رغم أنني لم اكن اعرفه جيدا بسبب هجرته مبكرا من القرية في وقت كنا لا زلنا فيه أطفالا، ورغم أنه كان يزور القرية في بعض المناسبات الا انه لم يكن يبق كثيرا، وكنت قد سمعت في القرية قصصا كثيرة يرويها الصبية والمزارعون في ليالي السمر المقمرة في الصيف، أنه اعتاد حياة المدينة ولم يعد يطيق الحياة في القرية وانه كان يشكو دائما في زياراته القصيرة المتقطعة للقرية من عدم وجود ثلاجات توفر الماء البارد ومراوح كهربائية تخفف من القيظ. يبدو أنه كان يكسب مالا كثيرا من عمله بالتجارة لكنه كان يصرف أكثر على الشراب والنساء والبهجة التي باتت مكلفة بسبب سياسات الحكومة العسكرية، كان يسخر من شعارات الحكومة التي رفعت شعار التأصيل وأسلمة كل مظاهر الحياة، قال لي في الماضي كنت أحب العاهرات الاثيوبيات، ثم قمت بتأصيل البهجة فتحوّلت الى العاهرات المحليات! ألم تسمع بشعار الحكومة الجديدة نأكل مما نزرع، مزقنا فاتورة القمح، مزقت أنا فاتورة إستيراد الحب! لم يكن هناك مناص من صداقته، يحكي قصصا طريفة، ويغني، يمتلك عودا، حكي لي أن والده حضر قبل سنوات للعاصمة للعلاج، وكان والده يقيم في بيت عمه، ذهب للسلام عليه وكان يحمل العود معه معتقدا أن ذلك سيعطي والده إنطباعا جيدا عن مدى إندماجه في حياة المدينة، لكن والده طرده خارجا ولم يسمح له بزيارته مرة أخرى، الا بعد أن توسط عمه، قال : إعتقد والدي أنني ضعت، الأجيال القديمة لا تنظر الى الفن الا بإعتباره ضياعا.

لم أجد أحدا من معارفي القدامي، معظمهم هجروا الوطن بعد أن طردوا من وظائفهم في العهد الجديد الذي سعى لتمكين مناصريه، كان عز الدين يسافر معظم وقته خارج العاصمة لتوزيع بضائعه، كان يتاجر في كل شئ، اكسسوارات نسائية،

أدوية بيطرية، ملابس رجالية ونسائية، سجائر، عرض علي أن أرافقه فربما يروق لي عمله أو على الأقل أجد عملا في المناطق التي يسافر اليها، كان صوته جميلا، لكنه يغني بإهمال، لا يحفظ كلمات الأغاني، يضيف أية كلمة يصادفها في طريقه، وجدته أنا فنانا، رغم أن بقية سكان البيت لم يوافقونني الرأي وقال لي أحدهم ان عزالدين كان على وشك اعتزال الفوضى التي يسميها فنا، لولا حضوري الذي حقن طاقة جديدة في شرايين رغبته في مواصلة الغناء، حين يشرب يفقد تدريجيا بوصلة غنائه، تختلط الأغاني والألحان، يجب ان يبق أحدهم واعيا ليمسك به من يده ويعيده الى الاغنية التي يتسرب منها الى عوالم أخرى، يمد يده بعد تناول وجبة العشاء ليغسل له أحدهم يده، لأنه يكون عادة عاجزا عن القيام بسبب الشراب في مثل هذا الوقت، ذات مرة مد يده ولم ينتبه له أحدهم وفجأة هطلت زخة مطر كثيفة فقال : لولا هذا الإنقاذ الإلهي لنمت بدون أن اغسل يدي!!

إحتجنا وقتا أطول هذه المرة لنستجمع قوانا ونتجمّع في ذاكرة واحدة، حاولنا تحديد الثغرة التي إنهارت بسببها محاولتنا الاولى، لا بد أن النيازك الهائمة في الفضاء والتي كانت تقترب من مكاننا أحيانا هي السبب في تشتيت تركيز أفكارنا، تحدث أحدنا بصوت هامس شارحا مرة أخرى ضرورة تكاتفنا والا سنبقى الى الأبد في هذه المتاهة، شعرت بالرعب من صوت الرجل وبذلت جهدا كي أبدو متماسكا، كان الرجل يقف بيننا لكن صوته كان يوحي بأنه قادم من عوالم أخرى، وأنه لم يشترك معنا أبدا في حيواتنا السابقة التي كنا نحاول إستعادة أرقام شفرة الوصول اليها السرية، كان صوت الرجل ينتقل من عالم الى آخر، دون أن تتبدد نبرته القوية وثباته على نفس الفكرة. ختم توجيهاته بالقول: يجب أن نركز جميعا في وقت واحد كل أفكارنا في اللحظة نفسها، الإنشغال بأية شئ آخر أو التفكير في لحظة منصرمة او حتى في المستقبل، سيضعف فورا من جهدنا الجماعي .

بعد قليل، بدأت حزمة الضوء تتجمع وتتحرك نحو الأعلى ببطء، تنثال عبر حواجز سحب النسيان، فتبدأ ينابيع ضوء خفية تتفجر من حولنا وتحت أقدامنا، تبدأ الحياة تدب في الأشياء من حولنا، نشاهد صور عوالمنا المنسية، كل وقائع زماننا المنسي، تبدو مغطاة بغلالة رقيقة من الضوء والبخار، في إنتظار وصول حزمة ضوء الذاكرة الى الوجهة النهائية حيث ستنفتح لها أبواب عالمنا القديم وزماننا الذي نعرف، تدفقت شحنة الضوء، قوية، محمية بآلهة الضوء ورياحين نهار ضائع في ذاكرة النسيان، تحركنا فوق شلال الضوء المتجه مثل طريق من النور الى أعلى، مثل جسر يمتد وسط الكواكب والبراكين الى الشمس، وفجأة إنتصب أمامنا سور ضخم يمتد على مد البصر، سور مرتفع دون نهاية كأنه يلامس حدود السماء، سرنا قليلا على أمل أن نجد مدخلا ما، وجدنا بعد قليل بابا ضخما، مصنوع من خشب صلب يشبه خشب السنط، حاولنا دون جدوى فتح الباب، كان ثابتا لا يتزحزح مثل جبل، كأنه لم يفتح منذ الأزل، تقدم أحدنا زاعما خبرته في صناعة الأبواب الخشبية القديمة، أوضح لنا أن الباب مصنوع من خشب غريب لكنه يشبه خشب شجر اللبخ الذي يتميز بقوته ويستخدم مع خشب السنط في صناعة المراكب الشراعية، قال بإمكاني صناعة مفتاح أن وجدت قطعة خشب مناسبة، لكنه حين تفحص الباب لم يجد مكانا لايلاج المفتاح، قال هذا باب حديث رغم أنه يشبه أبوابنا القديمة التي يكون لها مفتاح خشبي ضخم، لكن هذا الباب ربما يعمل بطريقة الأبواب الحديثة التي يسحبها موتور كهربائي.

كان عزالدين متعجلا للسفر قبل حلول فصل الخريف، وافقت على مرافقته رغم أنني لم أكن أملك فكرة أو برنامجا محددا، قبل يومين من سفري وصلتني رسالة من قريبي يفيد فيها بأن الاوراق جاهزة وستصل خلال أيام وعليّ أن أقوم مباشرة بعد إستلامها بطلب الفيزا من السفارة السعودية. كنت قد وجدت عملا مؤقتا في الفترة الماضية أساعد فيه أحد معارفي وكان يملك شركة لإستيراد المحركات وقطع غيارها، قمت بمراجعة حسابات الشركة لمدة عام كامل حصلت على بعض المال أرسلته لوالدتي، عرض عليّ صاحب الشركة أن أعمل معه في وظيفة ثابتة ونسبة لإجادتي للغة الانجليزية ستكون مهمتي السفر للهند كل بضع أشهر لعقد

صفقات الإستيراد ومتابعة شحن البضائع وتكملة إجراءات الاستلام في ميناء بورتسودان ثم شحنها الى الخرطوم، قبلت العرض مبدأيا رغم أنني لم أكن أحب العمل في مجال التجارة لكن فكرة السفر لفترات قصيرة إستهوتني، لكنني طلبت منه أن أبدأ العمل بعد شهر واحد قررت أن ارافق فيه عزالدين في رحلته.

بوصول أوراق العمل في السعودية لاحت لي فرصة العودة للتدريس الذي أحببته، لكن فكرة الغربة كانت مخيفة بالنسبة لي، ولم أقبل بها الا إرضاء لوالدتي التي رأت في وجودي في الوطن خطرا على حياتي، لكن يبدو أن الأجهزة الامنية لم تكن ترغب في وجودي هناك، ربما لإعتقادهم أن مدرسا شخصيته مقبولة في القرية يمكن أن يكون له تأثير مضاد في عقول التلاميذ او بعض أهل القرية. توقعت في البداية أن أتعرّض لمضايقات حتى في الخرطوم لكن شيئا لم يحدث، شعرت فقط في الأيام الأولى بأن لقائي بشخص بعينه تكرر عدة مرات لم يكن صدفة، وحين ذهبت لتوثيق اوراقي قبل إرسالها للسعودية، إبتدرني شخص دون مقدمات بأنه يرغب في تقديم نصيحة لي، وأنه لمس رغبة في التحدث الي لأنني أشبه شقيق له يقيم في إستراليا منذ سنوات. وقال لي أنني لا زلت شابا والمستقبل أمامي فلم أضيعه هنا؟ وحكى لي قصة طويلة عن كيفية سفر شقيقه وحياته هناك، وكيف أن أحواله تحسنت حتى أنه إشترى في فترة وجيزة بيتا في الخرطوم، تذكرت على وقع نصيحته، نصيحة ضابط الأمن المشابهة في فترة إعتقالي، ثم أعطاني رقم تليفون لوزير سابق في الحقبة الديمقراطية قال لي أن الرجل لديه علاقات مع سفارات أجنبية ويمكنه مساعدتي في الحصول على فيزا للسفر، شعرت بأن وجوده في المكان لم يكن صدفة.

لكنني لم أرهق نفسي بالتفكير كثيرا، وضعت الورقة في جيبي وشكرت الرجل على نصيحته، كنت أشعر كأنّ هناك قوى مجهولة تدفع بي في إتجاه الهجرة، وكنت كلما إزداد لدي ذلك الشعور أزداد تشبسا بالبقاء وعدم السفر .

قرّرت عدم السفر، ترددت في البداية لأنّ بعض معارفي شجعوني على عدم تضييع فرصة السفر، قال أحد زملاء السكن

كيف تضيع مثل هذه السانحة؟ كل من تراهم حولك في هذا البلد يتمنون مثل هذه الفرصة، الأ ترى الحال بنفسك؟ حرب أكلت الأخضر واليابس وحكومة لا يهمها سوى الكرسي حتى لو دفعت بآخر مواطن الى الحرب، وبعد فترة سيقتحمون البيوت بحثا عن كل من يستطيع أن يحمل بندقية، ليرسلونه دون تدريب حتى، الى مناطق العمليات.

أرسلت رسالة لوالدتي شرحت لها أنني وجدت وظيفة هنا، وأنني أخشى أن أسافر بعيدا وأتركهم لوحدهم في هذا البلد، كنت أعرف انها لن تقتنع بكلامي، والحقيقة انه لم يكن لدي من سبب لسفري مع عزالدين سوى رغبتي في عدم السفر للخارج وتأجيل قبولي لوظيفة بعيدة عن التدريس.

يبدو أن والدتي لم تكن سعيدة بقراري، عرفت بعد سنوات أنها أرسلت لي رسالة ترجو مني أن أسافر الى السعودية، حين وصلت الرسالة كنت أنا قد قد غادرت الخرطوم.

قال العم الطاهر إنه يفضل الذهاب وحده ليستجلي مصير سناء، قال أنه سيذهب لزيارة صديق قديم يقيم في نفس القرية وسيحاول معرفة الوضع بهدوء قبل أن يجري اتصالا مباشرا مع والد الفتاة، وأنه سيحاول أن يمهّد الطريق لعبد الرحيم إن كان ذلك ممكنا، ولم يحدد إن كان سيكتفي بمقابلة والد سناء أم سيذهب لمقابلة عمها الذي قيل أنها تقيم معه.

في الصباح ذهب معي عبد الرحيم ودينق الى البيت، أعدّت لنا شقيقتي طعام الافطار، أكلنا وتحادثنا مع والدتي تحت شجرة النيم في الفناء، ثم عدنا منتصف النهار الى مزرعة العم الطاهر، ساعدنا عبد الرحيم في حراثة أرض المزرعة، الأرض لأنها كانت رملية كنا نستخدم الجزء الأكبر منها في زراعة القمح والشمار، الفول المصري يحتاج لتربة طينية خصبة لذلك كنا نزرع قطعة صغيرة جدا، لأنّ أسعاره في السوق كانت أفضل من سعر القمح، يصعب تسويق محصولها من الفول المصري هنا، لأنّ معظم الناس تفضل الفول المنتج في

جروف نهر النيل أو في الجزر، بسبب جودته العالية، لكن على كل حال كما يقول العم الطاهر يمكن في العاصمة تسويق كل شئ، الناس هناك تأكل كل شئ، وسيحتاجون ايضا لإستيراد المزيد.

لأنّ الأرض رملية لم نحتج لاستئجار جرّار لحرثها، كنا نستعمل المحراث اليدوي العادي الذي يجره الثور، ونقوم بتسوية الارض بعد ذلك، لكن لأنّه تبقى أكثر من ثلاثة أشهر على بدء موسم الشتاء تركنا الأرض دون تسوية حتى تتعرض أطول فترة لضوء الشمس.

خلال فترة الشتاء يكتفي العم الطاهر برعاية شتول النخيل ويقوم بزراعة مساحات صغيرة من البصل والطماطم، كما يعتني بالبقرة والثور وقطيع الابل الصغير الذي يملكه، والذي يبيع منه أحيانا لتجار الجمال الذين يقومون بتهريب الإبل الى دراو، وبسبب غلاء الديزل، يزرع العم الطاهر ايضا البرسيم واللوبياء بين أشجار النخيل، لري النخيل وإستخدام البرسيم واللوبياء كغذاء للبهائم ويقوم أحيانا ببيع الفائض.

في المساء نلعب الورق ونغني، تعلمنا كيف نوحّد قوتنا خلف لحن واحد ينطلق بعيدا ليصب في مجرى تيار النجوم، يطوف العالم قبل أن يعود الينا محملا بغبار النجوم و ألحان معذبين آخرين. لكننا بسبب عدم خبرتنا في ضبط قوة اللحن والمقدرة على التحكم في نهر النجوم، كنا نثير أحيانا عواصف صغيرة تمسح العالم من حولنا تماما، وتعيدنا أبعد من نقطة البداية دون ماض أو ذاكرة .

صنع دينق ربابة تشبه الطنبور رغم صندوقها المستطيل، إستخدم أوتارا وجدناها مع بقايا طنبور في المزرعة، نتبادل العزف أنا ودينق، كنت أجيد العزف على الطنبور، لم أشعر بفرق يذكر مع استخدام آلة الليرالتي صنعها دينق. حين تبزغ النجوم كنا نجلس لنغني، تتسرب أنسام باردة عبر أشجار النخيل، تخفّف جحيم قيظ الصحراء، يحمل هواء الدميرة روائح طين الجروف الغارقة في الماء .

فجأة رأينا نجما يهوي في الصحراء، كأن تلك كانت إشارة لقرب عبور مجرى تيارالنجوم بجانبنا، جرفنا التيار فجأة حين كنا نغني نحن الثلاثة على نغمات ربابة دينق، كانت المرة الأولى التي نرى فيها مجرى النجوم، في المرات السابقة كان يتلقف بصمت عبير غنائنا ويطوف به العالم ثم يعيده لنا مشحونا بغناء معذبين آخرين، بعبق ضياء مواسم منسية، تعيد الحياة لرياحين الذاكرة الميتة، لزمن راكد في مستنقعات الحنين والنسيان، بقينا في أماكننا حين عبر المجرى بيننا، ينفذ غبار النجوم عبر أجسامنا، يجرف معه الركام الأكثر نسيانا في ذاكرتنا، يغسله في غبار النجوم ويعيد اليه الحياة، رأينا نياندينق تنهض من الذاكرة، تعبر في أصيل أشجار المانجو، بملابسها الزاهية، ووجهها الذي تتفتح له الأزهار، وتستدير له الشمس وتغرد له الببغاوات، ورأينا سناء تشع ضياء في عتمة المغيب، يطغى صوت غنائها الساحرعلى ضجيج الكاسيت، إنسرب خيط واحد حين أفلت دينق ربابته، على مشهد عبور نياندينق، تشبسنا أنا وعبد الرحيم بالمجرى أملا في بقاء سريانه، لكن قوته كادت تجرفنا معه، أفلت عبد الرحيم اللحن على مشهد سناء تغني لوردات مغيب ناء في الذاكرة، كان شبيها بجلسات الحب والكلوروكوين، لكنه كان واعيا لدرجة أن يعرف أن الصور كانت تنتمي لزمان آخر، جرفني التيار حين أفلت عبد الرحيم اللحن، حملتني الدوامة العاصفة وأفلتتني خارج المزرعة فوجدت نفسي مشتبكا في فروع شجرة طندب.

في اليوم الثالث عاد العم الطاهر، كان الحزن باديا على وجهه وخطواته، لم يجرؤ أحدنا على سؤاله، تركناه وهو يحاول أن يبدو مشغولا بالعناية بحماره وبهائمه، ثم ذهب لتفقد إبله السارحة في أجمة أشجار السنط والطرفاء قريبا من المزرعة. حضر إليه بعض البدو من مهربي الجمال لشراء جمل، أعد لهم القهوة وقضى معهم وقتا طويلا، شعرت إنه كان يحاول تجنبنا، إقترحت على عبد الرحيم ودينق أن نذهب الى القرية لزيارة أمي ونعود مساء، لم يكن لدينا الكثير لعمله في المزرعة. كل الاستعدادات لموسم الشتاء كانت قد انتهت تقريبا، سننتظر إنحسار موسم الدميرة قبل أن نبدأ الزراعة مع بدء هبوب رياح الشمال الباردة.

حاولت أن أبدد شؤم أية توقعات وقلت ربما لم يستطع العم الطاهر مقابلة والد الفتاة، أوضحت، الناس تسافر كثيرا في فترة الصيف، للعلاج أو زيارة الأقارب، ثم أضفت ضاحكا، بالأمس قالت لي أمي أنها سمعت في جهاز الراديو أن الطيب الزين أصبح نائبا لحاكم الولاية!

بدا دينق مندهشا قليلا لكن عبد الرحيم لم يبد عليه أنه أصيب بالدهشة، قال بكآبة: كان ذلك شيئا متوقعا، كنت سأدهش لو أنه إستمر في تمثيل دور المعارض للنظام، كان هو يعرف ما يريد وقد تولينا نحن مساعدته. قلت: بعض الخطب واليافطات المناوئة للنظام والعمل نهارا في الشارع، ربما حققنا نحن أيضا شيئا، على الاقل عرفنا أن النظام مهزوم من الداخل، يلجأ للتزوير علنا و يرشو كل من يقف في طريقه حتى إن كان لا يحمل أية بضاعة.

علّق عبد الرحيم: هم يعرفون ما يريد، والاّ لم لا يعرضون عليك أنت شيئا؟ بالعكس لا تعتقد أن الأمر إنتهى، ما أن يفرغون من توزيع كعكة الانتخابات، حتى يتفرغون لتسوية الحساب مع من حاولوا الصيد في ماء انتخاباتهم العكرة، وكالعادة سيتذكرونك أنت ودينق وستكمل والدتك وشقيقتك مع العم الطاهر رعاية زراعتكم حتى نهاية الموسم لحين خروجكم من المعتقل.

جلسنا في الفناء مع والدتي، تحت شجرة النيم العتيقة، رياح السموم تفسح المجال لهواء الدميرة الرطب، العابق برائحة حياة أخرى، رائحة عيدان الذرة، رائحة الزمن الراكد في النسيان.أكلنا مع والدتي وتسامرنا معها، وشربنا الشاي بالنعناع والتمر، مع بدء حلول الظلام عدنا الى المزرعة، أخبرت والدتي أنني قد أتأخر وقد لا أحضر لقضاء الليل، قالت والدتي، إعتدنا على غيابك الكثير، القرية آمنة، ثم ضحكت وقالت : وفي كل الاحوال ليس لدينا هنا ما نخاف عليه!

قطعنا شوارع القرية الهادئة، لا شئ سوى غناء بعض الصبية الجالسين فوق كثبان الرمال بإنتظار بزوغ القمر ليلعبوا شليل، الهواء عابق برائحة الدميرة، ونغمات طنبور متقطعة تتهادى أحيانا من خلف الكثبان، مصحوبة بعواء كلاب ضالة

وأشخاص ينادون بأصوات مرتفعة، ربما كانوا يقفون بجانب ضفة النهر وينادون على أشخاص في الجانب الآخر. حين وصلنا المزرعة لم نجد العم الطاهر، ربما خرج للصيد وتأخر قليلا، قلت أنني سأتولى حلب البقرة التي نتناول عشاءنا دائما من حليبها، ثم قمت بعمل الشاي بالحليب، قال عبد الرحيم، ماذا يحدث في العالم هل سنشرب شايا بالحليب وننام؟

أحضر دينق ربابته، وبدأنا نغني، كنا نستوحي غناء الصبية فوق الكثبان في إنتظار القمر، فجأة رأينا نجما يهوي بإتجاهنا، ثم رأينا تيار نجوم الليل يعبر بيننا، أمسكنا بأيدينا حتى لا يجرفنا التيار، وحاولنا الحفاظ على درجة دفْ غنائنا حتى لا يتحول التيار الى عاصفة، شعرنا بأنفسنا بسرعة أكثر خبرة في تطويعه وإبقائه في دائرة تحكمنا، لم نلحظ أن العم الطاهر إنضم لنا، وأنه يمسك بيديه معنا، حتى رأينا صور ذاكرته تندلق في المجرى بعد قليل، رأينا بركان الضوء القادم من أزمنة النسيان، ورأينا نياندينق نائمة أمام خيمة على حافة صحراء نائية، حاولنا أن نعرف شيئا عن مكانها، رأينا حتى تفاصيل الحلم الذي كانت تراه في تلك اللحظة، تقف وحيدة في صحراء شاسعة، تنادي علّ أحدا يعطيها جرعة ماء دون جدوى، رأينا دينق واقفا مستندا على عصا طويلة من نبات القنا وهو يغني وخلفه شمس غارقة في أمواج نهر استوائي:

نياندينق يا إبنة كور

من فضلك أطردي الكلاب بعيدا،

فهي تلعق الدماء،

ففي صراعي مع ذكر البجع

أواجه الموت.

رأيت الدموع تغطي وجهي دينق وعبد الرحيم، فعرفت أن عبد الرحيم تعرّف على القبر الذي تنمو فوقه الحشائش والذي رأينا العم الطاهر يقف بجانبه وهو

يبكي، فجأة تراخت قبضتنا الجماعية على التيّار، فجرفنا المجرى بقوة وسرعة لم نعرف معها ما الذي حدث، لا أعرف كم مضى من الزمن حين وجدت نفسي فجأة غارقا في الرمال، كأنّ أحدهم قام بدفني ناسيا أن يدفن رأسي، لم أستطع التعرف على المكان الذي وجدت فيه نفسي، بدأت أحاول تحديد مكاني عن طريق النجوم التي بدت لي غير ثابته في مداراتها، وسط فوضى كونية شاملة، كنت أمشي دون هدف، أتوقف كل برهة محاولا تذكر من أكون أو ما الذي رمى بي في هذه الصحراء الخالية حتى من رمالها، فجأة لمحت من على البعد على ضوء القمر الذي بزغ قريبا من الارض حتى حسبت أنني يمكن أن ألمسه، لمحت تسعة رجال يقفون في صف واحد كأنهم في إنتظار شئ ما، حثثت الخطى بإتجاههم و لم يداخلني اليأس حتى حين إكتشفت أنهم كانوا يبدون أبعد كلما حسبت أنني أقترب منهم.

تحولت الأنظار كلها الى الرجل العاشر،الذي كان يقف بعيدا قليلا من المجموعة، كان منظره غريبا في ضوء القمر، يبدو هو وجلبابه كتلة واحدة لا يمكن تمييز رأس أو أرجل فيها، إنتظرنا أن يتقدم قليلا ليحكي ظروف وصوله الى هذا القفر البعيد، لكنه لم يتحرك، تقدم أحد أفراد مجموعتنا ومد يده ليتحسس الجسد قبل أن يعلن حين سقط الجسد ارضا: إنه ميت!

كان يلبس جلبابا شبيها بالكفن، لديه فتحة واحدة من الأسفل، سحب أحدنا الجسد خارج الجلباب، مجرد أن لامس وجهه الميت ضوء القمر، حتى بدأ في الغناء، كان صوته قويا، حزينا، مصحوبا بضفائر لحن كانت تُفتّت أزمنة الخوف من حولها أثناء زحفها نحو السماء، لا لتتحول الى طاقة ضوء تخترق حصار الشهب نحو الأبد، بل لتستحلب العاصفة الوشيكة، قطرة قطرة، من بحر الرمال والسكون.